الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

المكان في رواية "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف

اعداد الطالبة

غدير عثمان طه الحروبي

عميد كلية الدراسات العليا

إشراف

الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الاردنية

تشرين اول ١٩٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٣/١٠/٢٤م وأجيزت .

الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين [مشرفا]

الدكتور فواز طوقان [عضوا]

الدكتور سمير قطامي [عضوا]

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى روح أبي الطاهرة

إلى أمي . معين حبي . ثمرة لصبرها وشقائها

إلى اخوتي وأخواتي الأعزاء

إلى كل من خطا معي دروب هذا البحث

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الاهداء	جـ
فهرس الموضوعات	د-هـ
الملخص	و
المقدمة	
تمهيد :	
أولاً : المكان	
أ- المكان والفلسفة	٤
ب- المكان وعلم الاجتماع	٨
جـ-المكان والعمل الأدبي	١٠
ثانياً : المدينة	
أ- مدخل	١٦
ب- المدينة وعلم الأجتماع	١٧
الفصل الأول	
صور المكان	
أولاً : المكان المفتوح	
أ- الصحراء	٢٤
ب- البحر	٣٨
جـ- السوق	٤٢
ثانياً : المكان المغلق	
أ- البركسات	٤٤
ب-المضافة	
جـ- المدينة الجديدة	٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

بنية الرواية	٥١
أولاً : علاقة المكان بالشخصية	٥٣
أ- الناحية الجسدية	٥٥
ب- الناحية النفسية	
*الشخصية والمكان الأليف	٥٩
* الشخصية والمكان غير الأليف	٦٨
* الشخصية والمكان المعادي	٧١
جـ- جدلية المكان والزمان وأثرهما في سلوك الشخصية	٧٤
ثانيا: علاقة الزمان بالمكان	٨٠
أ- زمن البداوة	٨٢
ب- زمن النفط	٨٤
جـ- جدلية الزمان والحدث في التأثير على المكان	٨٥
د- المكان والتغير	
* الناحية الشكلية	٩٠
* الناحية الاجتماعية	٩٥
ثالثا: المكان والرمز والأسطورة	
أ- المكان الرمز	١٠٠
ب- المكان الرمز والأسطورة	١٠٦
رابعاً : المكان واللغة	١١١
أ- جماليات الوصف	١١٢
ب- السرد والحوار	١١٧
خامساً : المكان ورؤية الكاتب	١٢٧
الخاتمة	١٣٥
فهرس المصادر والمراجع	١٣٧
الملخص بالانجليزي	١٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

المكان في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف

هدف هذا البحث إلى إبراز أهمية المكان في رواية مدن الملح حيث أولاه الكاتب اهتماماً كبيرا وقدّمه على بقية عناصر الرواية ،بحيث أصبح المحرك الأساسي لجميع عناصرها وقد تعرض البحث لمفهوم المكان عند علماء الفلسفة والاجتماع ، ومن ثم أهميته في العمل الأدبي كي يكون ذلك مفتاحاً للتعرف على معنى المكان وتحديد دوره في البناء الروائي ، لذلك عرضت في الفصل الأول لصور المكان وحدّدت الأبعاد التي تعدّاها لتشمل الأبعاد السياسية والنفسية والاجتماعية .

أما الفصل الثاني فقد كان في تحديد علاقة المكان ببقية عناصر الرواية ، وقد أحس الكاتب ربط عناصر روايته فيصعب على الباحث دراسة عنصر دونما إغفال لبقية العناصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

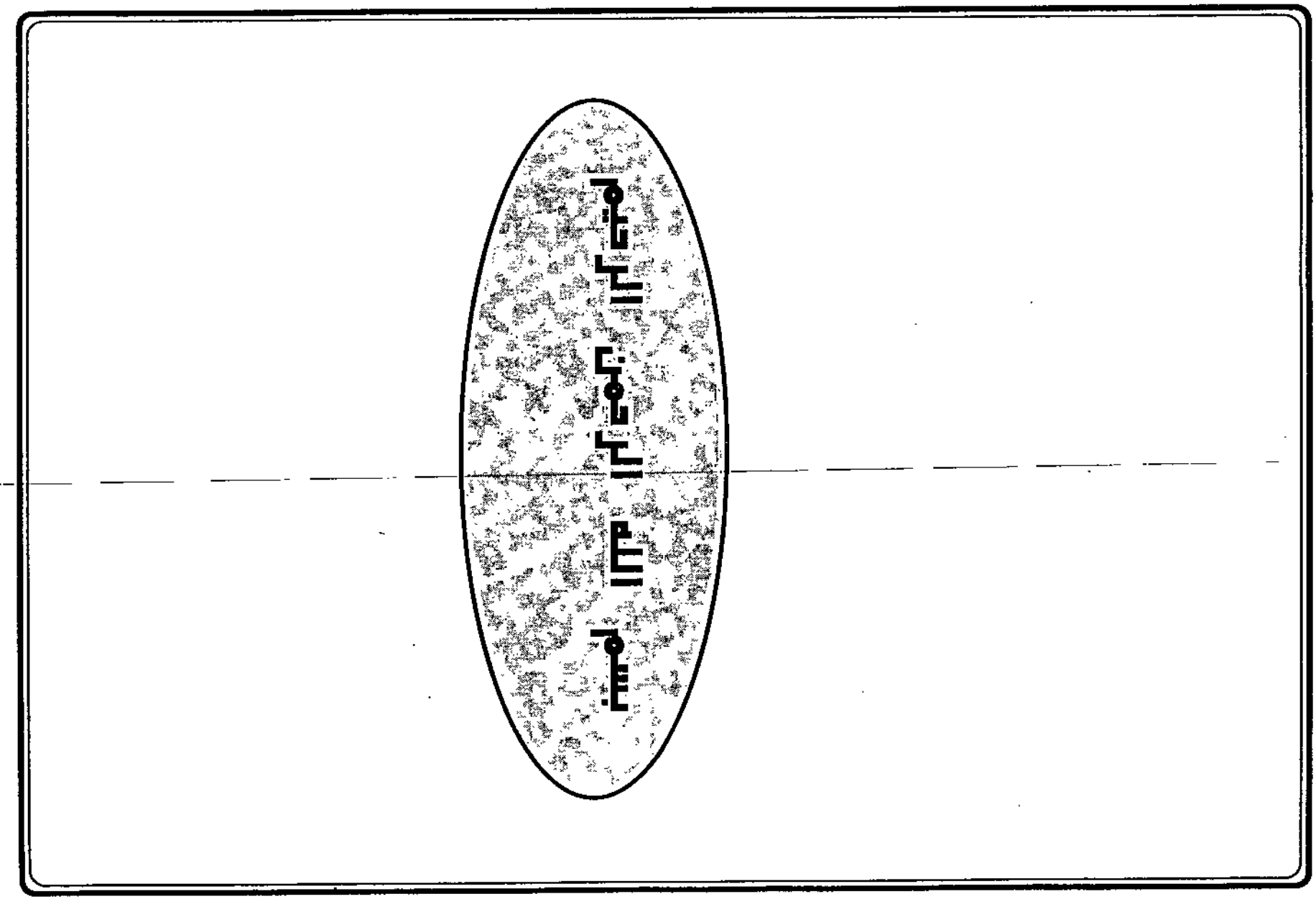

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

تعود دراستي لموضوع « المكان في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف» إلى رغبتي في دراسة الرواية العربية ،وبما أن عبد الرحمن منيف واحد من أبرز الروائيين من حيث دوره في تطوير الشكل الروائي القادر على حمل معضلات الإنسان العربي المعاصر ، فقد اخترته موضوعا لدراستي هذه ، ولما كانت دراسة المكان في أعماله جميعاً ، قد تصرفني عن التعمق في هذا الجانب ، رأيت أن أركز على عمل مهم لهذا الروائي ، كان فيه المكان عنصرا أظهر ، وهو رواية «مدن الملح » التي تقع في خمسة أجزاء ، وتبلغ صفحاتها ألفين وخمسمائة صفحة تقريبا .

وقد كان اختياري لعنصر المكان عند عبد الرحمن منيف ، لأنه - فيما أعلم- لم يظفر بدراسة جامعية مستقلة، على الرغم من أهميته في تشكيله الروائي ، . ولو نظرنا إلى عناوين رواياته ، لوجدناها تتصل جيمعاً بالمكان ، إذ يكاد يكون بطل الرواية ، والعنصر الذي تتشابك معه كل العناصر الروائية الأخرى .

وقد واجهت صعوبة في دراستي هذه ، ربما تكون أساسية في إعداد هذا البحث ، تتمثل في قلة الدراسات التي تناولت مفهوم المكان ، وتحليله من خلال النصوص الأدبية ، باستثناء دراسة لغالب هلسا عن المكان في الرواية ، وترجمته كتاب « جماليات المكان » لجاستون باشلار ،بالإضافة إلى بعض البحوث وبعض الدراسات الأدبية الأخرى .

أما البحث ، فجاء في تمهيد وفصلين وخاتمة .

وسيتناول التمهيد مفهوم المكان من وجهة نظر الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، ثم دوره في نظرية الأدب .

وسأعرض في الفصل الأول ، لصور المكان ،التي تمثلت في الصحراء والبحر وما ارتبط بذلك من أمكنة أخرى تفرعت عن الصحراء ، وظهرت عن طريقها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأبعاد السياسية والاجتماعية والفكرية ، التي عمد الكاتب إلى إظهارها من خلال وصفه تلك الأماكن .

وسيتناول الفصل الثاني بنية الرواية ، وذلك من خلال العناصر الأدبية وارتباطها بالمكان ، وسيشمل علاقة المكان بالشخصية ، وتأثيره في تكوينيها الشكلي والفكري ، كما سأبيّن علاقة المكان بالزمان وذلك عن طريق الحد ث ، الذي اتحد مع الزمان ليؤثرا في المكان ، ثم المكان الواقع والرمز الذي لجأ الكاتب إليه للتصريح بأمور غائرة في نفسه ولا يستطيع الكشف عنها مباشرة ، ثم المكان واللغة ، ثم المكان ورؤية الكاتب .

وأخيراً ، لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر لأستاذي الدكتور إبراهيم السعافين ، لاشرافه على هذه الرسالة ، وإعطائي التوجيهات اللازمة ، لتخرج الرسالة بما هي عليه الآن ، كما أتقدم بالشكر الجزيل للدكتورفوازطوقان والدكتور سمير قطامي على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيد :-

أولاً : المكان

أ- المكان والفلسفة

ب- المكان وعلم الاجتماع

جـ- المكان والعمل الأدبي

ثانيا : - المدينة

أ- مدخل

ب- المدينة وعلم الاجتماع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شغل المكان قطاعات فلسفية واجتماعية كثيرة ، حتى أصبح لهذه الكلمة غيرُ مفهوم ، لجأ إليه الأدباء ، كلٌ حسب المفهوم الذي يتمشى وغرضه الأدبي .

ولا عجب في أن يحوز المكان على اهتمام كبير من مختلف القطاعات العلمية والأدبية ، إذ يلعب دوراً كبيراً في حياة أي إنسان ، فهو الركن الأساسي الذي ينطلق منه وإليه يعود ، فمنذ أن يكون نطفة ، يتخذ من رحم الأم مكانا يبدأ تكوينه به ، وبعد أن تتفتح مداركه ، يبدأ بتحديد أبعاده المكانية من خلال حياته العملية إلى أن ينتهي المطاف به إلى القبر .

ولتعرّف ما تحويه هذه الكلمة من معانٍ ، وكي أستطيع التعامل معها لتحليل المكان في رواية « مدن الملح » ، لجأت إلى تعريف المكان من خلال وجهة نظر الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، لعلّني أستطيع الوقوف على معنى محدد يساعدني على إدراك دور المكان وكيفية مساهمته في بناء الرواية .

أ- المكان والفلسفة :-

وردت كلمة المكان في الفكر الفلسفي القديم ، وقد بحثها أرسطو بحثاً مفصّلاً في كتاب « السماع الطبيعي » .

« فبّين أنه موجود ، بدليل أنه حيث يوجد جسم ، يمكن أن ينتقل عنه ، ويشغل محله جسم آخر، ومعنى هذا أن المكان يختلف عن أي شيء يتميّز فيه ، ثم إن العناصر الطبيعية ، يميل بعضها إلى فوق ، والبعض الآخر إلى تحت ، والفوق والتحت ليسا نسبيّين فقط إلينا ، بل الفوق هو الاتجاه الذي تتحرك نحوه النار ، والتحت هو الاتجاه الذي تتحرك نحوه الأرض ، ويميز أرسطو الخصائص التالية للمكان :-

١- المكان هو الحاوي الأول .

٢- المكان ليس جزءاً من الشيء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- وهو مساوٍ للشيء المحوي .

٤- فيه الأعلى والأسفل .[١]

ويؤيد أرسطو وجود مكان خاص ومكان مشترك ، فيعرّف المكان المشترك على أنه الحيّز الذي يشغله جسمان أو أكثر [٢] »

أما أفلاطون ، فقد عرّف المكان على أنه الحاوي للموجودات المتكثّرة ومحل التغير والحركة في العالم المحسوس عالم الظواهر غير الحقيقي [٣] »

وبمثل ذلك يقول كلارك [٤] ونيوتن [٥] ، إذ تصورا المكان أنه الحاوي للأشياء، ولكنهما وصفاه بخصائص أساسية هي اللامتناهي ، الأزلية والأبدية ، القدم ، وعدم الفناء [٦] ، وأضاف نيوتن إلى ذلك ، فميز بين المكان المطلق والمكان النسبي قائلا :-

« إن المكان المطلق في طبيعته الخاصة له ، يبقى دائماً مشابها لنفسه ، وثابتا غير متحرك ، أما المكان النسبي ، فهو بُعْدٌ متحرك ، أوواسطة للأماكن

---

(١) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤، ج٢، ص ٤٩١ .

(٢) المعجم الفلسفي ، مراد وهبة ، دار الثقافة الجديدة ، ط ٣، ١٩٧٩ م ، ص ٤٢٢ .

(٣) قضايا الفلسفة العامة ومباحثها ، علي عبد المعطي ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ط٢ ، ١٩٨٤ ، ص ١٢٤/

(٤) كلارك صمويل : فيلسوف ولاهوتي انكليزي ، ١٩٧٥ -١٧٢٩ ، درس الفسلفة الديكارتية في كامبرج ، ثم انتمى إلى السلك الكهنوتي الأنغليكاني ، له رسالة في وجود الله وصفاته ومراسلات حول المكان والزمان ، تبنى فيها موقف نيوتن الواقعي ضد مثالية لايبنتر ، مؤكدا أن الزمان والمكان من صفات الله وأدواته ، أنظر : معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط ١ ، أيار ، ١٩٨٧ ، ص ٤٨٦ .

(٥) نيوتن ، فيلسوف وعالم ورياضي وفيزيائي وفلكي إنكليزي ، اكتشف تكوين الضياء الشمسي ، ١٦٦٩ وقوانين الجاذبية ١٦٨٧، أنظر : المنجد في اللغة، ط ٢٤، دار المشرق ، بيروت ،ص٧٢٢

(٦) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي ، ص ٤٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلقة التي تحددها حواسنا بواسطة وضعها بالنسبة إلى الأجسام» [١] .

ومن بين الفلاسفة الذين عرّفوا المكان ، أما نويل كنت فقال :- « المكان امتثال ضروري قبلي ، يقوم أساساً لكل العيانات الخارجية ، فلا يمكن إبداء تصور عدم وجود مكان ، وإن أمكن تصور عدم وجود أشياء في المكان ، إن المكان يعد شرطا لإمكان حدوث الظواهر ، وليس تحديدا متوقعا عليها ، وهو ، امتثال قبلي يؤدي دور الأساس الضروري للظواهر الخارجية» [٢].

وقد اختلفت الآراء في تحديد مفهوم هذه الكلمة ، عند جماعات الفلاسفة ، فالمكان عند الفلاسفة الإسلاميين « هو السطح الباطن للجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر للجسم المحوي [٣] » ، أما عند المتكلمين :- « فهو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم ، وينفذ فيه أبعاده ويرادفه الحيّز » [٤] ، وعند الحكماء الإشراقيين هو :

« البعد المجرد الموجود ، وهو ألطف من الجسمانيات ، وأكثف من المجردات، ينفذ فيه الجسم ، وينطبق البعد الحال فيه على ذلك البعد في أعماقه وأقطاره ، فعلى هذا يكون البعد منقسماً في جميع الجهات ، مساوياً للبعد الذي في الجسم ، بحيث ينطبق أحدهما على الآخر ، سارياً فيه بكليّة [٥] »

أما المحدثون ، فعرّفوا المكان بأنه « وسط مثالي غير متداخل الأجزاء ، حاو للأجسام المستقرة فيه ، محيط بكل امتداد متناه ، وهو متجانس الأقسام . متشابه

---

(١) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي ، ص ٤٩١.

(٢) أمانويل كنت ، عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط١ ، ١٩٧٧ ، ص ١٨٨

(٣) موسوعة الفلسفة ،عبد الرحمن بدوي ،ص ٤٦١ .

(٤) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية ، واللاتينية ، جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ج٢ ، ص ٤١٢

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخواص في جميع الجهات ، متصل وغير محدود [١] »

وقد أضاف علماء الهندسة صفتين أخريين للصفات التي عند المحدثين فقالوا :-

« المكان ذو ثلاثة أبعاد ، ومعنى ذلك أنه لا يلتقي في نقطة واحدة من المكان إلاّ ثلاثة خطوط عمودية ، والثانية قولهم إن أجزاء المكان مطابقة بعضها البعض [٢] ، بحيث يمكنك أن تنشئ فيه أشكالا متشابهة على جميع المقاييس ، ولا سبيل إلى إنكار هاتين الصفتين » [٣] .

أما رياضيو القرن التاسع عشر وعلى رأسهم جاوس وريمن فقالوا بإمكانية وجود مكان غير المكان الإقليدسي [٤] ، والمكان له أبعاد كثيرة ، أما المكان الإقليدسي فهو ليس إلاّ واحدا من بين أنواع المكان [٥] ، في حين ذكر ديكارت [٦] أن المكان « فكرة فطرية من أفكار العقل ، فإن لم تكن لدينا الأفكار المسبقة الفطرية عن الدوائر والمثلثات ، فإننا لن نكتشفها أبداً ، ولن نعرفها في العالم الخارجي [٧] »

وبذلك ، فقد وردت كلمة المكان في معاجم الفلسفة بتعريفات مختلفة ، إذ عرضت هذه المعاجم لمفهومها عند عدد من الفلاسفة وكيفية تعاملهم معها .

---

(١) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، ص ٤١٣

(٢) هكذا في الأصل .

(٣) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، ص ٤١٣

(٤) المكان الإقليدسي : هو المكان ذو ثلاثة أبعاد : الطول والعرض والعمق

(٥) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، ص٤١٣

(٦) ديكارت فيلسوف فرنسي كبير ، ويعد رائد الفلسفة في العصر الحديث ، وفي الوقت نفسه كان رياضيا ممتازا ، ابتكر الهندسة التحليلية ، ولد في ٣١ مارس سنة ٥٩٥ ، بمدينة لاهية غربي فرنسا أنظر : موسوعة الفلسفة ، ص ٤٨٨.

(٧) قضايا الفلسفة العامة ، علي عبد المعطي ، ص ١٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فجاء المكان في المعجم الفلسفي على أنه « الموضع وجمعه أمكنة ،وهو المحل المحدد الذي يشغله الجسم ، فنقول : مكان فسيح ومكان ضيق ، وهو مرادف للامتداد[١] » أما في موسوعة الفلسفة ، فورد أنه

« كل الأشياء في العالم الخارجي تشغل مكانا ، أي أنها ذات امتداد ، وبينها وبين بعضها مسافات ، ولا يتداخل بعضها في بعض ، ومن هنا ، اتصف المكان بالصفات التالية :-

١- أنه ذو امتداد في ثلاثة أبعاد ،وهي الطول والعرض والعمق .

٢- عدم قابلية النفوذ ، فلا تتداخل الأشياء بعضها في بعض في المكان الواحد الخاص لها [٢] » .

في حين ذكر مراد وهبة أن « المكان حيّز خاص ومشترك ، فالمكان الخاص هو الحيّز الذي يشغله الجسم بمقداره ، أو هو السطح الباطن من الجسم الحاوي للسطح الظاهر من الجسم المحوي ، أو هو حاوٍ للمتمكن ، مفارق له عند الحركة ومساوٍ له.[٣]

ب- المكان وعلم الاجتماع

كان لعلماء الاجتماع ،دور مهم في تحديد المكان ،وذلك لأنهم عدّوه عاملاً مؤثراً تأثيراً فاعلاً في سلوك الإنسان ، ففرقوا بين المكانين المتسع والضيق ، إذ يعمل الأول على ذوبان الكيان وتلاشيه ، في حين يرتبط الثاني بالدفء والألفة والحماية ، حيث يتم التعارف بين الناس [٤] .

---

(١) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، ص ٤١٣

(٢) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي ، ص ٤٦١ .

(٣) المعجم الفلسفي ، مراد وهبة ، ص ٤٢١

(٤) جماليات المكان - مشكلة العمل الفني ، لوتمان ، يوري وآخرون ، تر : سيزا ، قاسم ، عيون المقالات ، باندونغ ، الدار البيضاء ،دار قرطبة ، ط٢ ، ١٩٨٨ ، ص ٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هنا جاء اهتمام علماء الاجتماع بالمكان ، وفي دراسة لقباري محمد إسماعيل عن مفهوم المكان ، وضّح فيها كيف يتعامل علماء الاجتماع مع المكان ، كل حسب مفهومه الخاص ، فمنهم من رأى أنه يصدر عن بنية العقل ، وأن هناك تصوراً قبليا لدى الإنسان عن طبيعة المكان [١] ، ومنهم من رأى عكس ذلك ، في حين ربطه آخرون بالزمان ، وحددوا مفهومه على هذا الأساس [٢].

٤٣٢٢٥١

وهكذا ، نرى أن مفهوم المكان ، اختلف من شخص إلى آخر ، ومن علم إلى آخر ، فراح كل واحد يحدده حسب المفهوم الذي يخدم مجال فكره أو تخصصه .

---

(١) انظر : علم الاجتماع والفلسفة ، قباري محمد إسماعيل دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ط٢ ، (د .ن) ج٢ ، ص ٥٥ بالإضافة إلى ذلك أنظر رسالة المكان في الرواية الفلسطينية ، مها حسن يوسف - ماجستير - ١٩٩١م ، جامعة اليرموك .

(٢) قضايا الفلسفة العامة ومباحثها ، علي عبد المعطي ص ١٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ- المكان والعمل الادبي :-

إن أية رواية أو قصيدة ، لا بدّ أن تتوافر فيها بعض العناصر الأساسية المترابطة بعضها ببعض ، حتى تظهر لنا مكتملة الجوانب ، وأهم هذه العناصر ، الأحداث ، الشخصيات ، الحبكة ، والمكان والزمان، وقد يطغى أحد هذه العناصر على العنصر الآخر ، حتى ليكاد يظهر أنه المحرك الأساسي لأحداثها ، وفي اعتقادي ، أن للمكان أثرا كبيرا في العملية الأدبية ، وهو محور أساسي من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب .

فالمكان في العمل الأدبي « شخصية متماسكة ، ومسافة مقاسه [١] بالكلمات» [٢] ، إضافة إلى أن كل شخصية من شخصيات الرواية لا بدّ أن يكون لها مكان تعيش فيه ، منه تبدأ ، وفيه تتطور ، وإليه تنتهي ، كما أنه لا بدّ أن يكون لهذا المكان مؤثر يؤثر فيه ، فيؤدي به إلى التوسع والدمار ، فهذان العنصران أساسيان في الرواية ، عن طريقهما تستطيع أن تستمر في أحداثها أو تتوقف ، هذا إلى جانب تأثيرهما الفاعل في ربط عناصر الرواية الأخرى بعضها ببعض ، وخاصة عنصر الزمان ، إذ إن وجود الإنسان مرتبط بالزمان والمكان ، وهذه العناصر تحتاج إلى أحداث كي تتطور عن طريقها ، وبذلك ، يكون عنصر الزمان والمكان هما الرابطين الأساسيين لجميع هذه العناصر .

وقد تظهر براعة الأديب في طريقة استعماله لهذه العناصر وربطها بعضها ببعض ، فتضفي على الرواية جماليات تكسبها أبعاداً فنية وأدبية في آن واحد ، وليس شرطا ، أن ينجح أي أديب في توظيف هذه العناصر توظيفاً فنيا ، فقد يوفّق أديب في توظيف المكان - على سبيل المثال - فيكون المحرك الرئيسي لجميع عناصر الرواية ، في حين تنعدم قيمته عند أديب آخر ، فيكون مجرد وعاء تدور فيه الاحداث ، ويصبح مجرد عنصر من عناصر العملية الأدبية لا أثر له،

---

(١) هكذا في الأصل

(٢) الرواية والمكان ١- الموسوعة الصغيرة -١٩٥ - ياسين النصير ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص ١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى لو توافر لدى الكاتب مخزون تاريخي عن ذلك المكان ، مع العلم أن هذا المخزون لذلك المكان يمد الكاتب برؤى ثرة .

ولو نظرنا إلى تاريخ الرواية ، نجد أن العنصر المكاني لم يكن من العناصر الرئيسية في الرواية ، بل بدا مجرد زخرف ، والمهم هو الزمن ، وبقيت كذلك حتى جاء روائيو القرن التاسع عشر وخلصوا إلى نتيجة مؤداها أن عنصر المكان من العناصر الرئيسية في الرواية [١] ، وبذلك ، خطت الرواية خطوات جديدة للخروج من الذاكرة التسجيلية أو الوصفية إلى الانفعالية ، وبدأ التطابق بين القصة والوسط المحيط أمراً ضرورياً ، نستطيع به استخلاص الآثار المترتبة عن هذا التطابق ، لذلك اكتسب وصف الأمكنة أهمية كبيرة ، بحيث لم يعد بالإمكان عدّه مجرّد خلفية تقع فيه الأحداث .

وعلى هذا النحو ، نلاحظ أنه كان هناك اهتمام كبير بالمكان ، على أن السؤال حول سبب هذا الاهتمام ، وعلاقة ذلك بالأدب يظل قائما ؟

إن الظاهرة المكانية لم تظهر عشوائيا ، وقد ساعد على ظهورها ، ظواهر حضارية وإنسانية معاصرة .

« فالعالم سمته الإنسانية هي التشتت ، ومن هنا ، فإنه يحتاج إلى وعاء يفرض عليه شكلا أو نسقا تجميعيا ، تكتسب الجزئيات في بوتقته الصاهرة، قيمتها ودلالاتها وصلابتها الوجودية معا ، وفي عالم يفتقر إلى الأحداث الكبيرة والشخصيات الكبيرة ، عالم تفقد فيه حتى الأحداث الكبيرة قدرتها على لم شمل هذا الشتات ، وعلى استقطاب جزئياته ومجتزءاته ، يصبح المكان هو البؤرة والوعاء ومصدر القيمة »[٢]

---

(١) نحو رواية جديدة ، الآن روب جرية ، تر : مصطفى إبراهيم مصطفى ، تقديم : د. لو يس عوض ، في دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ص ٨-١٠ ، وأنظر عالم الرواية ، رولان بورتوف وريال أوتيله ، تر: نهاد التكرلي ، مراجعة فؤاد التكرلي ود. محسن الموسوي . ط ١، ١٩٩١ م ، دار الشؤوق الثقافية العامة ، آفاق عربية العراق ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٩١م ، ص١٠٧

(٢) الحداثة والتجسيد المكاني ، صبري حافظ ، مجلة فصول ، ع٤ ، مج ٢ ، ١٩٨٤ ، ص ٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبما أن الرواية تستمد مادتها من المجتمع ، لتؤرّخ المراحل التي مرّ بها الإنسان على مرّ العصور ، وتعرض لأحداثه وأماكن وقوعها وفعل الزمان عليه ، فلا بد لكل هذه القضايا من مكان .

وقد تلعب الطبيعة دوراً كبيرا للتأثير في الكتّاب في المجتمع العربي ، إذ إن طبيعة البيئة ، جعلت الإنسان في هذا المجتمع ، يعتمد عليها اعتمادا كبيرا . وبمرور الزمان وتعاقب الأحداث ، أجبر الإنسان على التخلي عن اعتماده على الطبيعة ، وأصبح يصارع الأحداث .

ولأن مهمة الرواية معالجة القضايا الإنسانية والتعبير عنها ، فقد يضطر الكتاب إلى اللجوء إلى عنصر الطبيعة - المكان - للتعبير من خلاله عن هذه الأزمات ، وقد كانت رواية مدن الملح ، إحدى أبرز الروايات التي عالجت أثر الطبيعة في الإنسان العربي ، كما بينت المعاناة التي واجهها الإنسان العربي إثر تخليه عنها . وهذا ما سنوضحه بالتفصيل فما بعد .

ولأن القضايا العربية تختلف باختلاف البيئة . فقد اختلفت المضامين الروائية التي تعالج أزمة المكان ، وبذلك ، نرى أن المكان أصبح « عنصراً شكليا فاعلاً في الرواية ، يتميز بأهمية كبيرة في تأطير المادة الروائية ، وتنظيم الأحداث ، ولا يمكن أن يكون منعزلا عن باقي العناصر الروائية ، إذ أنه يدخل مع بقية العناصر في علاقات متعددة [١] إلى جانب أنه يعبّر عن مقاصد المؤلف ، فتغيّر الأمكنة سيؤدي إلى نقطة تحوّل حاسمة في الحبكة التي تؤدي إلى تغيير السرد والمنحى الدرامي [٢] وعلى ذلك ، فإن هناك علاقة واضحة بين المكان والأدب ، وكأن الأدب يحاول استرداد المكان الذي يقوم التغير السريع بالإطاحة بهويته وشخصيته » [٣] .

إضافة إلى ما تقدم ،نرى أن الاهتمام بالمكان - وخاصة المكان الفني -

---

(١) بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت : الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٩٠ ، ص ٢٠

(٢) نفسه ، ص ٣٢ .

(٣) الحساسية الجديدة واستخدامات المكان ، صبري حافظ ، مجلة الاقلام ، ع ٢١-١٢، ص.٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نشأ:- «نتيجة لظهور بعض الأفكار والتصورات ، التي تنظر إلى العمل الفني على أنه مكان ، تحدد أبعاده تحديداً معينا ، هذا المكان -المكان الفني - من صفاته أنه متناه ، غير أنه يحاكي موضوعا لا متناهيا ،هو العالم الخارجي ، الذي يتجاوز حدود العمل الفني [١] ».

إلا أن اعتدال عثمان - في معرض حديثها عن المكان في الشعر - تجعل هذا التجاوز منطقيا ، يولد واقعا محتملا ، كما أنها ترى ، أن للغة أثرا فعالا في هذا التجاوز ، فباتحادها مع الخيال ،تستطيع أن تتجاوز قشرة الواقع ، إلى ما قد يتناقض معه ، إلا أنه يبقى واقعا محتملا [٢] .

وليس شرطا أن يكون المكان المرسوم في ذهن المبدع ، مكانا واقعيا ، بل ربما يتصور الكاتب في ذهنه مكانا ويرسم عليه أحداثا وقعت بالفعل ، وتدار بوساطة شخصيات حقيقية ، أو شخصيات يعبر عنها بالرموز ، وبذلك ، يكون قد آرخ لمكان ما بوساطة مكان مفتعل .

وهكذا نرى أن المكان يقسم إلى نوعين ، مكان موضوعي يبني تكويناته من الحياة الاجتماعية ، ونستطيع أن نشير إليه بما يشبهه اجتماعيا وواقعيا أحيانا ، ومكان مفترض ، وهو إبن المخيلة البحته ، الذي تتشكل أجزاؤه وفق منظور مفترض ، وقد يستمد بعض خصائصه من الواقع [٣] .

وليست مهمة الأديب فقط بناء المكان ، بل يجب أن يكون لهذا المكان قيمته الفكرية والفنية ، لذلك ، يجبُ أن يصدر عن إنسان واعٍ متفهم للتاريخ، وبذلك، يحمل في طياته وأبعاده قيمة للصراع وللتاريخ الذي تشكلت بموجبه الأبعاد .

وسواء أكان المكان واقعيا أم مفتعلا ، فهو مكان غير ثابت ، تظهر عليه حركة الزمان ، « وبما أن الرواية تمسك بلحظة زمنية ، منتزعة من مجرى التاريخ ، فلا بدّ من تثبيت عناصر تلك اللحظة ، وذلك لا يعني سكونية المكان الروائي ،

---

(١) جماليات المكان - مشكلة المكان الفني - يوري لوتمان وآخرون ، ص ٦٨

(٢) جماليات المكان ، اعتدال عثمان ، مجلة أقلام ، ع٢ ، ١٩٨٦ ، ص ٧٦

(٣) الرواية والمكان - الموسوعة الصغيرة ٥٧ - ص ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باعتباره مجرد مؤثر ، بل علينا أن نرى فعل التاريخ المصاغ روائيا فيه »[١]

وعلى هذا النحو ، نلاحظ أن هناك عدة وظائف للمكان ، فبالإضافة إلى ما ذُكر ، توجد وظيفة مهمة له ، وهي الوظيفة التفسيرية [٢] ، فعن طريق الصور التي يرسمها المبدع للمكان - سواء أكانت وصفية أم سردية - يستطيع الكاتب أن يرسم في ذهن المتلقي ، صورة لهذا المكان مرتبطة بشخصياته التي تبني الأحداث ، ولربما يكون المكان نفسه هو بطل الأحداث ، وبذلك يكون المكان : « القرطاس المرئي والقريب ، الذي سجل الإنسان عليه ثقافته وفكره وفنونه ، وكل ما يتصل به وما وصل إليه من ماضيه ليورثه إلى المستقبل ، ومن خلال الاماكن ، نستطيع قراءة سايكولوجية ساكنيه وطريقة حياتهم وكيفية تعاملهم مع الطبيعة »[٣]

من هنا ، يصبح المكان هوية شخوصه ، إذ يعطيهم إحساسا بالمواطنة ، وإحساسا آخر بالزمن ، فهو يحمل في طياته تاريخ بلادهم ومطامح شخوصه ، فبدا كيانا نلمسه ونراه ، وكونا مهجورا أغرقته سديمات لانهاية لها [٤] . إضافة إلى أن المكان هو « الأرضية التي تشد جزيئات العمل كله ، فهو إن وضح وضح الزمن الروائي ، وإن درس بعناية ، فهمت الشخصية ، وإن تناوله الروائي بصدق تاريخي وصدق فني ، مكّن عمله من أن يمتد في التاريخ» [٥] .

وهنا ، تبرز وظيفة جديدة للمكان ، وهي دلالته على صدق الفناء أو كذبه ، فالمكان ، لم يكن يوما إلا حاجة فكرية لمعرفة مصداقية الفنان ولعلّه أحد المعايير التي يقيس به الناقد إمكانية استمرار الفنان مبدعا [٦] ولا يعني هذا أن وظيفة المكان في العمل الأدبي هي وظيفة نقدية ، « وإنما هي طريقة لرؤية النص الأدبي

---

(١) الرواية العربية واقع وآفاق ، محمد براده وآخرون ، دار ابن رشد للطباعة والنشر بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١ ، ص ٢١٢

(٢) بناء الرواية ، سيزا قاسم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١١٣

(٣) الرواية والمكان - الموسوعة الصغيرة - ١٩٥ - ياسين النصير ، ص ١٦.

(٤) الرواية والمكان - الموسوعة الصغيرة -٥٧ - ياسين النصير ، ص ٥ .

(٥) الرواية والمكان - الموسوعة الصغيرة ٥٧ - ياسين النصير ، ص٥

(٦) إشكالية المكان في النص الأدبي ،ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ط ١ ، ١٩٨٦ ، ص ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الداخل والخارج معاً»[١] فنستطيع عن طريق الترابط بين ذات المبدع والمجتمع فهم النص الأدبي فهما جديدا .

فيكون بذلك المكان الأداة الأكثر استيعابا لمعاني النص وفنيته ، إضافة الى أن « العمل الأدبي حين يفتقد إلى المكان يفقد خصوصيته ، وبالتالي أصالته »[٢]

(١) حوار مع ياسين النصير ، مجلة الإقلام ،ع٤،سنة ٢٠ ، ١٩٨٥ ، ص٧.

(٢) جماليات المكان ، باشلار ، جاستون ، تر. غالب هلسا ، دار الجاحظ للنشر وزارة الثقافة ،الإعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : المدينة :-

أ- مدخل :-

تعد المدينة ظاهرة اجتماعية بالإضافة إلى كونها ظاهرة مكانية ، فهي أكثر من مجرد جزء من أجزاء المجتمع ، إذ تمثل حقيقة اجتماعية تعبّر عن الممارسات الجمعية للسكان الذين يعيشون ويعملون معا [١] .

فالمدينة تاريخيا ، هي البوتقة التي اختلطت وذابت داخلها الأجناس والشعوب والثقافات ، إذ تجمع أناسا من أطراف الدنيا مختلفين [٢] لذلك فقد تضخمت وأصبحت كائنا عضويا كبيرا ، واكتسبت اهتماما كبيرا من جانب عدد من العلماء والمختصين ، لازديادها من حيث العدد والحجم ، ولتأثيرها المباشر في بقية المناطق الأخرى غير المتحضّرة، والتي تخرج عن نطاق المدينة .

فمنذ القرن السابع عشر ، أصبحت المدينة موضع اهتمام اكثر الباحثين في مختلف التخصّصات ، مثل علم الإحصاء والسكان والاقتصاد والإدارة والتخطيط والإصلاح الاجتماعي ، كما اهتم الاخلاقيون بالمدينة ، وعدّوها مجرد مجموعة من القيم ، تجعلها مكانا مرغوبا فيه أو مرغوبا عنه ، لأنها مكان الوجود الانساني [٣].

وعندما نهتم بالمدينة المكان ، يجب أن نهتم بها أيضا من حيث كونها مرتبطة بالتحضر وأنماط الحياة الحضرية ، لأن عملية التحضر مرتبطة ارتباطا جدليا بالبيئة والإنسان .

فالسلوك الانساني يؤثر ويتأثر إلى حد ما بالبيئة المحيطة به، لذلك ،

---

(١) المدنية - دراسة في علم الاجتماع الحضري ، حسين رشوان ، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ م ،ص٤٥.

(٢) علم الاجتماع والمدينة ، إبراهيم خليفة ، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ ، ص ٦

(٣) المدينة - دراسة في علم الاجتماع الحضري - حسين رشوان ، ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-ومن الواجب ذكره هنا- أن اشكالا معينة للسلوك ، ربما تؤدي إلى إحداث تغير في البيئة ، وبالتالي يمكن تعديل المثيرات التي تؤثر في السلوك المكاني الذي تقوم به .

ومن الطبيعي أن يتأثر الإنسان بالبيئة ويؤثر بها ،ولا يجوز بأي شكل من الأشكال . فرض مكان ما على أي إنسان ، فقد خلقه الله وميزه عن غيرّه من الكائنات بجانب معنوي يتألف من العقل والروح ، لذلك ، فهو يسخّر قواه الجسمية والفكرية . لإشباع حاجاته العضوية والأمنية ، في الواقع الذي يتماشى ومصالحه الشخصية ، فنراه في صراع دائم مع البيئة الطبيعية من جهة ، ومع نفسه من جهة أخرى ، ولا ينتهي هذا الصراع . إلا إذا تم التآلف بين الطرفين .

وبما أن التحضر هو العملية التي تتم بها زيادة سكان المدن . عن طريق تغير الحياة في الريف . أو هجرة القرويين للمدن الموجودة ، بما في ذلك التغيرات التي تحدث لطبائع وعادات وطرق معيشة سكان الريف ، حتى يتكيفوا مع المعيشة في المدن [١] ، فإن عملية التحضر . عملية صعبة جدا ، قد تؤدي أحيانا إلى دمار المتحضر وضياعه ، فالانتقال من حياة الريف إلى حياة المدينة ، وارتباط ذلك بالتغيرات المصاحبة في نوع المهنة- الذي يؤدي إلى التغير في مستوى المعيشة فضلا عن انتقال الأفراد من بيئة يكثر فيها التأثر بقوى البيئة الطبيعية إلى بيئة أخرى لا يوجد لهذه القوى أيه أهمية [٢]- كل ذلك يؤدي إلى حدوث تغير جذري في حياة الإنسان ، لذلك نرى أن بعض الفلاسفة والمفكرين قد تميزت مواقفهم من المدينة بالتشاؤم ، إذ اعتبر شبنجلر المدينة شرا يحطم كل شئ ، فهو القائل بأن مولد المدينة موقوف على نهايتها [٣] ، إضافة إلى أننا نجد في ثنايا بعض الكتب تحذيرا من أخطار الحياة في المدينة ، وتأكيدا لفضائل سكان القرى ، وسنلحظ هذه الظواهر بشكل واضح في مدن الملح ، إذ حدد لنا الكاتب مفهوم المدينة ،وتدرج بنا

---

(١) علم الاجتماع الحضري ، عبد المنعم شوقي ، المطبعة العالمية ، ١٩٦١ ، ص ١٣

(٢) المدينة - دراسة في الانثروبولوجيا الحضرية - محمد غنيم دار المعرفة الجامعية ١٩٨٧

(٣) المدينة - دراسة في علم الاجتماع الحضري ، حسين رشوان ، ص٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحديد معالمها منذ كانت صحراء قاحلة ، حتى مجئ حملة النفط الأمريكية ، وأثرها في إحداث نقلة مفاجئة في حياة البشر ، أدت الي إشراكهم عنوة في عملية التحضر . التي ساهمت في دمارهم واحداث الصراعات بينهم ، وقد بدا هذا الصراع واضحا بين جيل الشباب ، وبين جيل الشيوخ ، إضافة الى المشكلات النفسية والاجتماعية ، وسنوضح ذلك بالتفصيل فيما بعد .

فما تقدم لمسنا بعض الظواهر التي تنحصر في المدينة وأثرها علي نفسية الأفراد ، ومهما قيل في هذا المجال ، فإن الحديث عن المدينة في حاجة إلى مزيد من التحليل والتفصيل ، ولا مجال للتوسع هنا ، لأن الدراسات حول المدينة ، أكثر من أن يسعها بحث متواضع ، لذا سأقتصر في حديثي . على تحديد مفاهيم المدينة عند علماء الاجتماع - لأن مدن الملح كانت أقرب إلى مفهوم الاجتماع من المفاهيم الاخرى - ، لكي يكون ذلك مفتاحا للتعرف علي طبيعة مدن الملح ، من حيث طبيعتها وخصائصها ، وعلاقتها بالمدينة النموذج ، كما يراها علماء الاجتماع .

ب- المدينة وعلم الاجتماع

من الصعب وضع تحديد واضح يفرق بين المدينة والقرية ، فقد يقول بعضهم ، أنه الفرق في عدد السكان ، ويقول بعضهم الآخر ، إنه الفرق في المستوى الإداري وشكل المباني والطرقات ... الخ [١]

ولكن إذا عدنا لتفنيد هذه الفروق ، نرى اختلاف المعايير بين الدول في تحديد المدينة وحجمها ، فقد كانت فرنسا تعرّف المدينة على أنها أي تجمع استيطاني بشري لا يقل عن ألفي شخص ، وكذلك تركيا ، أما الولايات المتحدة ، فترى أنه لا بد من وجود ألفين وخمسمائة نسمة للدلالة على حجم المدينة ، وحدوث كل من إسبانيا واليونان ، حجم المدينة بعشرة آلاف نسمة ، وبريطانيا ، بما لا يقل عن خمسة آلاف نسمة ، وكذلك فعلت الهند .

---

(١) علم الاجتماع الحضري ، عبد المنعم شوقي ، المطبعة العالمية ، ١٩٦١، ص١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما في العالم العربي ، فقد استخدمت مصر الحجم السكاني للمدينة ، بأحد عشر ألفا ، واستخدمت الأردن عشرة آلاف نسمة ، حداً أدنى لتعريف المدينة ،أما الأمم المتحدة ، فتميل الى استخدام العدد السكاني ، الذي لا يقل عن عشرين ألفا نسمة [١] .

وبما أن مدن الملح أقيمت بمساهمة من مختلف الدول الأوروبية ، فلا بدّ وأن تحمل - ولو حتى في شكلها الخارجي - مظاهر الدول الأوروبية . وعلى أساس التعريفات التي تبنيها ، فإننا نستطيع أن نعدّها مدينة، لمجرّد أنها تطابقت والتعاريف التي صنفها علم الاجتماع للمدينة ، إذ كانت تضم آلاف البشر من مختلف الجنسيات - وحسب وصف الكاتب للحياة بها فإنها كانت تعج بالفوضى ، نتيجة للاكتظاظ السكاني الناتج عن تجمع الجنسيات .

إلا أن التعريفات التي تبنى على أساس الكثافة السكانية ، يجب أن تكون مرفوضة ، لأن كثيراً من القرى ، ربما لكون لها ، الكثافة الموجودة في المدن ، لكنها صنفت ضمن القرى نتيجة لاعتماد اقتصادها علي الزراعة والمواد البدائية في الحياة . لذلك نرى أختلاف التعريفات عند علماء الاجتماع ، فمنهم من تصور المدينة امتداداً للقرية ، على افتراض أن هناك تدرجاً مستمراً بين ما هو ريفي وما هو حضري ، ومنهم من عدّها « حقيقة تراكمية في المكان والزمان [٢] » لذلك يجب استقراء تاريخها من خلال التراكمات التاريخية ، ومنهم من رأى أنها « ظاهرة طبيعية ، تنشأ نتيجة لتوافر عوامل طبيعية متعددة ، لا يمكن التحكم فيها [٣] » إأما ماكس وبر [٤] ، فقد عرّفها علي أنها ذلك الشكل الاجتماعي الذي يسمح بظهور ، أعلى درجات الفردية [٥] » وهذا ما سنلاحظ ظهوره في مدن

(١) المدينة - دراسة في الاثروبولجيا الحضرية - محمد غنيم ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٧ ، ص ١٠٤

(٢) المدينة ، دار في علم الاجتماع الحضري ، حسين رشوان ، ص ٤٣

(٣) المدينة ، دراسة في الانثروبولوجيا الحضرية ، محمد غنيم ، ص ١٦٠

(٤) ماكس وبير ، فيلسوف اجتماعي واقتصادي وسياسي الماني ، ولد في ٢١ ابريل سنة ١٨٦٤ ولد في ٢١ ابريل سنة ١٨٦٤ بمدينة ارفورن ، انظر موسوعة الفلسفة (٢١٥)

(٥) المدينة ، دراسة في الانثروبولوجيا الحضرية ، محمد غنيم . ص١٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملح .

كانت هذه باختصار أهم التعريفات التي تناولت مفهوم المدينة ، فمن خلال هذه التعريفات وغيرها مما أوردته المراجع المختصة في ذلك ، نجد أن الكثيرين اتفقوا على أن المدينة هي تجمعات سكانية كبيرة وغير متجانسة ، تعيش على قطعة محددة نسبيا وهي كل « مكان يجتمع فيه عدد من السكان ويعيشون حياتهم اليومية بكل ما فيها من علاقات تربطهم ببعض ، سواء على الصعيد الخاص أو العام ».[١]

(١) المدينة ، دراسة في الانتروبولوجيا الحضرية ، محمد غنيم ، ص ١٥٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول : صورة المكان

أولاً : المكان المفتوح :-

أ - الصحراء

ب - البحر

جـ - السوق

ثانياً :- المكان المغلق :-

أ - البركسات

ب - المضافة

جـ - المدينة الجديدة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعد المكان من أهم العناصر الرئيسية التي تلعب دوراً مهماً في تجسيد الأبعاد الإنسانية للرواية ، وقد يكون للطريقة الفنية التي يستخدمها الكاتب ، دورٌ مهمٌ في إظهار جماليات المكان، إلاّ أن ذلك لا يقدّم للرواية نمطاً فنياً واضحاً دون رؤية العناصر مجتمعة، وقد يكون للشخصية دورٌ مهمٌ في إظهار جماليات هذا المكان ، فعن طريقه نستطيع أن نعرف طريقة حياة ساكنية ، وكيفية تعاملهم مع الطبيعة ، فهو « القرطاس المرئي والقريب ، الذي سجل الإنسان عليه ثقافته وفكره وفنونه ، مخاوفه وآماله وأسراره ، وكل ما يتصل به وما وصل إليه من ماضيه ليورثه إلى المستقبل ، لذلك فهو المكوّن الاساسي لهوية الكيان الجماعي ، وقد يقوم بدور مهم في « التعبير عن المقومات الثقافية ، وقد أثرت العوامل البيئية في المفاهيم الأخلاقية والجمالية التي تحرك الشعوب في جميع أرجاء العالم» [١] .

ولعل عبدالرحمن منيف ، من أبرز الروائيين الذين أعطوا المكان اهتماما خاصاً، وكان اختياره لمكانه ، عاملا مؤثراً في تكوين مناخ مساعد على تقديم عمل من نمط معين .

ومنذ البداية ، نلاحظ أنه أعطى اهتماما واضحا للمكان في روايته « مدن الملح » ، ويتضح ذلك من خلال عنوان الرواية ، ولعلّ العنوان يشي بوضوح ، برؤية الكاتب لهذه المدن ولمستقبلها ، فهو يعدّ المدينة التي قامت في مناطق النفط ، مدينة غير إنسانية ، مدينة مصطنعة ، جاءت لتلبية حاجات مؤقتة، وبالتالي تراكمت فيها الأشياء والبشر ، ضمن سياق يخدم تلبية الحاجات الخارجية ، ومن أجل تلبية الحاجات ، يصبح كل شيء للمستغل مشروعا وممكنا ، ومن هنا ، بدأت هذه المدن تنمو وتكبر وتتضخم ، إلى درجة أن حجمها وشكلها ،وطريقة العلاقات السائدة فيها ، أيضا كلها قائمة لغرض معين ، والمدن من هذا النوع، سوف ينتهي دورها ، بانتهاء المهمة التي وجدت من أجلها .

---

(١) الرواية والمكان - الموسوعة الصغيرة ١٩٥ - ياسين النصير ، ص١٦

(٢) جماليات المكان - يوري لوتمان وآخرون ، ص٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللتعبير عن ذلك ، وقف الكاتب على مكان واقعي ، بأبعاده التاريخية والجغرافية والدينية ، واستطاع بمهارته ، إيقاع القارئ في حيرة من أمره ، فلم يستطع التمييز بين مكانه الموضوعي ومكانه المفترض ، فوصف هذه الأماكن وصفا دقيقا ، على الرغم من أنه لم يعش فيها ، ولعلّ ذلك يعود إلى أنه عاش في مكان مشابه ، له خصائص وصفات مشتركة مع المكان الذي جاء في الرواية ، وهذا ما عرّفه باشلار بأنه « المكان الممسوك بواسطة الخيال [١] » وصنّفه غالب هلسا تحت عنوان « المكان كتجربة معاشة [٢] » ، وهو المكان المرسوم داخل العمل الروائي والقادر على إثارة ذكرى المكان عند القارئ ، بالإضافة إلى أن مخيلة الكاتب الواسعة ولغته المنتقاة ،أسعفته للوصول إلى هذه النتيجة ، وسنلاحظ فيما بعد أن المكان هو المحرك الرئيسي لجميع عناصر الرواية ، وبدونه لا نستطيع دراسة أي عنصر من عناصرها ، « فالمكان يلد السّر قبل أن تلده الأحداث الروائية ، كما أنه يسم الأشخاص والأحداث الروائية في العمق »[٣] ، إضافة إلى أنه يحمل سلطة تعجز الكلمات عنها في بناء الحدث ، فنرى الكاتب يلجأ إلى استخدام طرق فنية مختلفة لرسم صوره المكانية، بطريقة تحوي مضامين إنسانية واجتماعية هادفة ،

« لذلك يجب أن ننظر إلى الصورة المكانية في الرواية - أي تجسيد المكان - لاعلى أنها تشكيل للأشكال والألوان فحسب ، ولكن على أنها تشكيل ، يجمع مظاهر المحسوسات من أصوات وروائح وألوان وأشكال وظلال ومحسوسات ... الخ [٤] »

ومع أن عناصر رواية مدن الملح لا تقبل التجزئة،وأعتقد أنها ترفض فصل أي من عناصرها إذ استطاع الكاتب بقدرته الروائية ، أن يحسن ربط عناصر روايته ، حتى جعلها وحدة واحدة ، لا يستطيع المرء أن يفرد عنصراً دونما إغفال لبقية

---

(١) المكان في الرواية العربية ، غالب هلسا ، الأداب ، ع ٣٠٢ ، ١٩٨٠ ، ص ٧٢

(٢) نفسه ، ص ٧٣.

(٣) نفسه ، ص ٧٣ .

(٤) بناء الرواية ، سيزا قاسم ، ص ٨٠ ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العناصر ، إلاّ أنني حاولت جاهدة أن أتعرض لعنصر المكان ضمن مجموعة العناصر الأخرى ، لأ تبين معالمه من خلال صور وشرائح أوردها الروائي ، وسوف أقتصر على ذكر الأمكنة التي كان لها أثر في تحريك الرواية ، وسأتجنب الأماكن التي وردت ورداً سطحيا ، لكي لا يكون لها تأثير في الفكرة الأساسية .

وقد بوبت دراستي للمكان في قسمين هما : المكان المغلق ،والمكان المفتوح ، فشمل المكان المفتوح ، الصحراء وما تفرّع عنها من مدن فيما بعد ، ثم البحر ، أما المكان المغلق فشمل السوق والبركسات والمضافة والقصور، بالإضافة إلى أماكن أخرى لها علاقة ببعض الصور التي ورد ذكرها ، وسأعرض فيما يأتي لصور المكان في الرواية .

أولاً : المكان المفتوح :-

أ- الصحراء :-

- تشكّل الصحراء أحد أبرز معالم الذاكرة العربية ، ومع أنها تشكل جزءا كبيرا من الأرض العربية ، إلاّ أنها بدت أقرب إلى الغائبة عن أدبنا في السنوات الأخيرة، قبل أن يعيد إليها بعض كتابنا الكبار الاعتبار ، وهم يدركون أنها جزء مهم من الذاكرة العربية التي تتعرض لمحاولات الطمس والتشويه والمحو .

ولو تأملنا كلمة الصحراء نفسها ، لوجدنا أنها تعني لأول وهلة البعثرة والانتشار ، أو الاتساع غير المتناهي لكل أشيائها من رمل وإنسان ... الخ .

لكن الكاتب استطاع هنا أن يرسم لوحة جغرافية ، تحولت فيما بعد الى لوحة فنية تسيطر عليها الحركة بكل أبعادها ، ومنذ البداية نلاحظ أن الصحراء كانت القاعدة التحتية التي ارتكزت عليها البنية الروائية ، ومن خلالها بدأ الكاتب تحديد جغرافية المدن التي نشأت فيما بعد .

إضافة إلى ذلك ، فقد أعطى الكاتب مكانه خصوصية واضحة ، وهذه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخصوصية - الطبيعية أو السياسية أو الاقتصادية - أضافت للمكان بعدا خاصا فيه ، وهو البعد الإنساني ، إذ أصبح للبشر في هذه المنطقة ميزات خلقية وخُلقية ، تؤثر فيهم وتبقى ملاصقة لهم ، مهما تختلف الظروف وسنتناول هذه القضايا في الفصل الثاني من هذا البحث .

والمتأمل في صحراء الكاتب يرى أنها تتمثل في عدة بيئات ، وكل بيئة امتازت بخصوصية معينة ميزتها عن البيئة الأخرى ، فيطل علينا وادي العيون في الجزء الأول من الرواية ، ومنذ البداية نلاحظ أن الكاتب ركّز اهتمامه على الوادي، ليوظفه في المستقبل كي يكون المكان الروائي الذي سيقام عليه العمل ، فجعل هذه المنطقة هي المكان الرئيسي للرواية ، وهي الركيزة الأساسية التي قامت عليها الرواية ، لأنه لو لم يكن هذا الوادي ، لما جاءت الحملة الأمريكية إلى المنطقة ، ولما وصلت الأحداث إلى ما وصلت إليه، فهذا الوادي في هذا المكان « لا غنى عنه ، ولو لم يكن موجودا ، لما كان هناك بشر أو حياة، ولما كانت هناك طريق لهذا أيضا ، ولما جاءت إليه القبائل » [١] .

وقد قدّم الكاتب الرواية، بوصف جميل لهذا المكان ، أشبه ما يكون بمقدمة القصيدة الطللية ، معطيا إياه خصوصية تميزه عن باقي البيئات ،وخصوصيته هذه تكمن في موقعه الغريب ، فوادي العيون جنة الدنيا ، يتوسط الصحراء بأشجار النخيل وينابيع المياه ، وهو شيء خارق بالنسبة للقوافل التجارية ، وأعجوبة لا يصدقها أحد، إذ انبعثت هذه البقعة الخضراء ، فجأة ودون مقدمات في وسط الصحراء ، « وكأنها انفجرت من باطن الأرض ، أو سقطت من السماء »[٢] ، وتكمن قيمة هذا المكان ، في أنه مركز للقوافل التجارية ، فيُنزلون أحمالهم ، ويستريحون ويشربون بعد العطش والتعب ، وعن طريقه يتعرفون على طبيعة القوافل التي مرّت من قبل ، من حيث بضاعتها ، وما هي الأسعار التي تتعامل

---

(١) االتيه ، عبد الرحمن منيف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٣ ، ١٩٨٨ م ، ص٩

(٢) نفسه، ص٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بها ، لذلك فموقعه هذا إنقاذ للقوافل من الموت في وسط الصحراء الغادرة الملعونة.

من جهة أخرى ، فقد يفسّر لنا هذا الموقع البعدين الاجتماعي والاقتصادي لسكان الوادي ، الذين نلمسهما نتيجة لانعزاله - إذ تؤثر بدورها على سكانها - فبحكم موقعه على الطريق التجاري ، اعتمد أهله في اقتصادهم على التبادل التجاري إلى جانب الزراعة ورعي الأغنام .

وقد نلاحظ أن الكاتب يلجأ إلى أسلوب الوصف الدقيق لهذا الوادي ، فيعطيه مساحة محددة « مسافته ثلاثة أميال ، أو تزيد قليلا ، وهذا الامتداد العريض في البداية ، لا يلبث أن يضيق شيئا فشيئا ، حتى يصبح في نهايته مجرد شريط رفيع تتناثر فيه أشجار قليلة من النخيل»[١] ، ولم يقتصر وصفه لهذه الصحراء على تبيان الملامح العامة لها ، بل لجأ إلى تحديدها بوساطة أشيائها التي تعد علامات تحدّها وتحميها من المخاطر في المستقبل ، فنرى شجيرات الإثل والسّدر والشيح تنبت عند نهاية الوادي لتمنع تقدم الرمال إثر هبوب الرياح ، ويمتد الوصف ليشمل المناطق المحيطة بالوادي ، وكأن من وراء ذلك غاية في نفس الكاتب يحاول عن طريقها تثبيت صورة الوادي في ذهن القارئ ، فيرسم لنا الهضاب الرملية التي تقوم بعد الوادي ، وهذه الهضاب تشرف على مساحات واسعة من الأرض المحيطة بها ، مما يجعل الناس يطلقون عليها الأسماء لتمييزها[٢] .

ولعلنا نلمس من طريقة الوصف لهذا الوادي . إيحاءً بتعاطف الكاتب معه ، وكأنه يهيئه لحدث سيؤدي إلى انقلابه رأسا على عقب ، لذلك فهو يركّز على وصف تفاصيله ، حتى تبقى مرتسمة في الذاكرة ولا تزول بزوال المعالم الأولى للمكان ، وهذا ما حدث بعد وصول الأجانب الثلاث إلى الوادي ، إذ بدئ التنقيب

---

(١) االمصدر السابق،ص٩

(٢) نفسه ص ٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن النفط ، ورافق ذلك وصول عدد كبير من الناس ومن مختلف الجنسيات . وهنا يصور لنا الكاتب الوادي بحالته الجديدة ، فخلال فترة قصيرة غير بعيد عن الماء أنزلوا الصناديق والأحمال ، ونصبوا الخيام ، بدا المنظر الذي تكوّن ساعات قليلة أشبه ما يكون بالحلم» [١] ، فهنا بدأت حياة جديدة في الوادي بتحديد معالمها ، فأزالت ملامح المكان الأولى، ليظهر عندنا وادٍ جديد ، يقضي على ملامح المكان القديم نهائيا ، وبذلك أصبح الوادي جاهزا لاستقبال عدد آخر من البشر ، مصطحبين معهم آلاتهم الحديدية ، التي بدأت التأثير في المكان ،فاقتلعت الأشجار ، ورحّلت أهل الوادي ، وبذلك فقد المكان خصوصيته التي ميزته عن بقية الأمكنة ، وبدا كأنه جزء من الصحراء التي تليه [٢] .

وهنا اندثرت معالم المكان الأولى ، وظهرت معالم أخرى جديدة، تحددت خيوطها الأولى بضياع الوادي ورحيل أهله وتشردهم .

وإذا انتقلنا إلى بيئة أخرى من البيئات الصحراوية عند الكاتب ، فإننا نلاحظ أنها تحمل خصوصية خاصة بها ، ففي الحدرة مثلا ، لا ينتظر الناس المطر لفرط ماخابت آمالهم ، فالحدرة تختلف عن وادي العيون من حيث الطبيعة والبشر، فهي مكان ناء ، والمطر فيها قليل ، لذلك انعكست هذه الخصوصية على نفسيات الناس ، وهذا ما سنوضحه فيما بعد .

ولو تأملنا بيئات الكاتب ، لرأينا أنها أبتدأت بالبساطة ، واتخذت فيما بعد طابع المدينة الحديثة ، التي أثرت في إنسان هذه المنطقة ، وأحدثت تغييراً جذريا في حياته ، إذ أنه لم يستطع استيعاب الواقع الجديد والتفاعل معه ، أو التأثير فيه .

وللتعامل مع هذه البيئة ، لجأ الكاتب في كل حديث له عنها ، إلى إظهار العاملين النفسي والاجتماعي ، إلى جانب العامل الجغرافي ، فظهرت عندنا

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٢) نفسه ، ص ١٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موران ببيوتها الطينية المتلاصقة ، إذ يصعب تمييز البيوت بعضها من بعض ، حتى قصورها فإنها لا تتعدى البيوت لبساطتها وانخفاضها [١] ، أما الشوارع فهي متعرجة ، متداخلة ، ضيقة ، وتعج بالأتربة والأطفال والذباب « الأسواق التي تبدأ من أطراف الأحياء ، ثم تتجه وتمتد نحو الشرق والشمال ، تصل إلى قرب قصر الروض من ناحية ، وإلى مسافة غير بعيدة عن سوق الحلال من ناحية ثانية ، والبيوت تتخلل الدكاكين ، وتحتل جزءاً كبيراً من السوق [٢] » ، فمن خلال هذه المقاطع الوصفية ، ، نستطيع أن نتعرف على طبيعة موران ،بلوحة تسيطر عليها الحركة ، فتلتحم الصور الوصفية والسردية معاً ، لتنفذا إلى مخيلة القارئ وكأنه أمام مشهد حي، يستطيع به أن يتعرف على أحياء موران .

ومع أن موران مدينة صغيرة ، بعيدة ، منسية ، إلاّ أنها لم تنج من وصول الغرباء إليها ، فبدأت تنشأ فيها نمط الحياة الحديثة ، وانفتحت على العالم ، ونتيجة لوصول موجات الغرباء ، بسبب ازدياد فرص العمل ، اختلطت موران بالجنسيات المختلفة التي فاق عددها أهل موران ، فهم « أخلاط من البشر ، بعضهم يأتي ويذهب دون أن يحس به أحد ، وآخرون جاءوا ليبقوا / حتى هؤلاء كان من الممكن احتمالهم لو أنهم بشر حقيقيون ، لكنهم لسيوا كذلك ، إنهم جاءوا ليسرقوا ، ليستبدوا بالآخرين ، ليسخّروهم ولا يشبعون أيضا » [٣] ، ولعل جميع هذه المظاهر تؤثر تأثيرا كبيرا في تغيير المكان ، وتنتهي بطمس هويته وتشويه شخصيته ،فيصطبغ بهوية بشره القادمين الذين يسعون جاهدين إلى هذا الهدف ، وهذا ما حدث فعلا في موران ، إذ أدى التطور العمراني في تغيير موران ، وتحوّلت من مكان محصور في رقعة معينة يحمل ملامح ساكنيه ، وملائم لحياتهم البدوية ، إلى مكان ذي طابع حديث ، كما بدأت حركة عمرانية كبيرة في البلد ، أدت الى تشوهه وتغييره ، فقامت أبنية من أنماط وأشكال مختلفة في

---

(١) الأخدود، ص ٢٥

(٢) انفسه، ص ٢٦

(٣) نفسه،٥٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كل مكان ، وشقت الشوارع في وسط المدينة وعلى أطرافها ، وبذلك بدت بقايا البيوت والجدران والأشجار وكأنها آثارعصور قديمة [١] .

فهذه الوثبة العمرانية والحضارية المفاجئة ، دثرت ملامح موران القديمة ،وبدا المكان غريبا على ساكنيه ، مشوّها ، خليطا من الأجناس العمرانية المختلفة ، لاتناسق بينها ، ولا تمت إلى ملامح الإنسان العربي بأية صلة ،لذلك فهو لم يتخلّ عن حياته السابقة ببساطة .

وفي مشهد سردي متحرك ، استطاع الكاتب أن يعطي صورة لموران بكل أبعادها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، بينّ من خلالها أن الصحراء لم تمت بقيام المدن ، وأن البدوي نقل الشكل الصحراوي إلى المدن التي استقر فيها ، فكانت الإبل في ساحات الدور أو عند أبوابها ، ونصبت الخيام بجانب الغرف الطينية ، وحفرت المواقد في الساحات الكبيرة التي كانت تحوي عدداً كبيراً من الحطب ، أما تلك الأطراف المائلة في جوانب البيوت ، فقد كانت معدة لذبح الخراف ، فبدت آثار الدماء اليابسة التي تحولت إلى اللون البني المقشور [٢] .

ومن هنا نرى أن أهل موران ، لم يستطيعوا التفاعل مع أي نوع من التطور ، فهم لا يتخلون عن بداوتهم مهما بلغ حد التطور ، ويفضلون الاعتماد على الاكتفاء الذاتي في حياتهم ، رغم وجود بعض الأحياء التي توضح التباين الطبقي في هذه المنطقة، ومن خلال لوحة رسمها الكاتب لموران الجديده، استطاع نقل صورة لموران بأبعادها الجغرافية والاجتماعية ، موضحا من خلالها الفروق الطبقية بين فئات الشعب ، فيبين أن موران امتلأت بالفيلات والبيوت المبنية على الطراز الياباني والطراز الانكليزي وبيوت اخرى كثيرة . أخذت من كل طراز طرفا ، وظلت في

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمكنة كثيره منها ، خلف الشوارع الواسعة ، وخلف الأبنية الجديدة العالية ، تلك البيوت الطينية الواطئة ، كما شقتها الشوارع العريضة والشوارع الدوارة [١]. ولعل هذا التشوه في شكل المكان ، أفقد موران خصوصيتها، ومع أنها تجاوزت البداوة ، كما تجاوزت القرية ، إلا أنها لم تبلغ المدينة :« فهي أقرب إلى البلدات الكثيرة المنتشرة على طرق التجارة أو في الواحات الكبيرة »[٢]

مما تقدم ،نلاحظ أن الكاتب أعطى موران صورة على امتداد الزمان ، فبدا كأنه يؤرخ لها ، إذ سرد لنا ما حصل فيها من أحداث ، وإلى أي مدى وصلت بها ، فبّين أنها كانت إمارة صغيرة ، منسية ، وسط الصحراء ، تعج بالحروب والفتوح ، إلاّ أن هذا كلّه انتهى ، واقتنع الجميع ، وبدأوا يستجيبون للواقع الجديد [٣] ، وفجأة وظف العامل الزمني ، حتى ليُشعر القارئ أن عقارب الساعة دارت مرة واحدة ،وإذا بالمدينة قائمة « أبنية من أنماط وأشكال لا حصر لها، و شقت الشوارع وسط المدينة وعلى أطرافها ، فأزالت معالم البلدة القديمة ، وحلّت محلّها بلدة جديدة »[٤] .

وكان لهذا التطور في شكل المدينة ، أثر في تطور أفرادها ، إذ كسروا طوق العزلة الذي اعتادوه ، أو الذي اكتسبوه من طبيعة بلادهم،وانفتحوا على العالم ،على الرغم من أن هذا الانفتاح ، أثر في شكل المدينة ،ولم يؤثر في عقلية أفرادها ، ولم تمض سنوات ، ونتيجة للأسفار التي قام بها معظمهم إلى بلدان كثيرة، حتى أصبحت موران مدينة منفصلة تماما عن المدينة القديمة ، فمن المجلات والرسوم البدائية التي رسموها للبلاد التي رأوها في أسفارهم ، إضافة إلى إقامة الشركات لبناء الفيلات والقصور ، بدأت تنبت القصور كما ينبت المداد [٥] ، وعلى الرغم من

---

(١) المصدر نفسه ، ٤٧٩

(٢) نفسه ، ص ٢٥- ٢٦

(٣) بادية الظلمات ، ص ٤٣

(٤) الأخدود ، ص ٢٤٨

(٥) نفسه ، ص ٢٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن الكاتب بيّن في البداية ، أن موران بقيت تمتد وتتسع حتى أصبحت حدودها غير معروفة ، إلاّ أنه توصل أخيراً إلى تشكيل رسم هندسي لها « غير بعيد عن السوق ، أو على التحديد في الطرف الغربي منه يقع المسجد ....، وفي الجهة الأخرى المقابلة من السوق ، كانت موران ... حين يتجمع المشهد كله ، وينظر إليه من مسافة معينة ، يبدو على شكل مثلث : الجامع رأس هذا المثلث ، أما ضلعاه فهما السوق والمقبرة »[١] .

أما حرّان فهي بيئة مختلفة تماماً عن وادي العيون وموران ، ويستهل الكاتب حديثه عن هذه المنطقة ، بوصف جغرافي لطبيعتها ، فظهرت عندنا البيوت الطينية الواطئة ، المحاطة بالتلال ، إضافة إلى الأشجار التي لم يستطع أحد أن يميز نوعها[٢].

وعلى عادته في أعطاء مكانه خصوصية محددة، وصف خصوصية حران بلوحة مكانية تشير إلى تفردها، « في هذا المنخفض من الأرض ، حيث كانت مجموعة بيوت طينية فقيرة ، قريباً من البحر ، تتشكل الطبيعة على نحو لا تماثله أمكنة أخرى» [٣] ، فخصوصيتها تكمن في تشكل طبيعتها ، ويرسم لنا الكاتب لوحة مكانية يحدد فيها هذه الطبيعة :-« في جانب يمتد رأس صخري طويل داخل البحر ، وفي جانب آخر يتكون خليج ضحل المياه ، شديد التعرج ، حتى إذا امتدّ إلى مسافة معينة ، انفتح البحر ، واتسع ، وبعد ذلك تبدأ الصحراء[٤] .

فهذه الصورة ، تعبّر عن مكان محدد، يسوده الهدوء ، وتخضع حدوده إلى قوانين ثابتة ، تساعد في تكوين الصورة المكانية له ، إلاّ أن هذه الصورة لم تبق على حالها ، فتأتي الحملة ، وتهدم البيوت الصغيرة ويرحل أهل حران إلى التلال

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٥

(٢) التيه ، ص ١٧٢

(٣) نفسه ، ص ١٨٤

(٤) نفسه ، ص ١٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغربية ، بعد أن وزعت عليهم الخيام [١] .

ويشرك الكاتب الحدث هنا ، برسم صورة جديدة للمكان ، فيبدو المكان قلقاً ، قابلاً للزوال في أية لحظة، وبرحيل أهل حران إلى الجهة الأخرى ، وعلى مسافة لا تقل عن ألف متر من الأسلاك الشائكة التي سيجت رقعة كبيرة من الأرض ، بدأت البواخر تحمل آلاف الرجال الغرباء ، وبذلك بدأت مرحلة جديدة في حران ، الحركة فيها لا تعرف التوقف أو البطء ، وهي أقرب إلى الجنون ، حيث يتراكض الرجال من مكان إلى آخر بآلاتهم التي ترفع التلال ، وتردم البحر ، وتدك الارض [٢] .

وهكذا تنتفض حران ، فهذه البلدة الصغيرة -المكونة من البيوت الطينية ، أصبحت مقرا وميناءً للشركة الأمريكية ، وبذلك بدأت حركة نشيطة في ميناء حران ، فالمراكب المختلفة الأحجام لا تنقطع ، ولا تتوقف عن إنزال الأشياء التي لا يعرف ما هي أو لماذا ، ومع الأحمال يأتي الرجال [٣] ،وبذلك تتغير حران تغيراً جذرياً، ولم يعد لها صلة بشخصيتها الأولى ، بعد أن هدمت البيوت وأزيلت كل المعالم ، فحران الآن أصبحت مدينة النفط ، ونتيجة لذلك تغير عمرانها تغيراً متتابعا ، يتماشى ومتطلبات المرحلة الجديدة ، فتقوم بذلك مدينتان حران العرب وحران الأمريكان ، وهنا يوضح لنا الكاتب ، البعدين الاجتماعي والسياسي لهاتين المدينتين ، من خلال رسمه صورة لحران الأمريكان ، وكان ذلك بداية للتعدد الطبقي في حران العرب وحران الأمريكان ، إذ قامت في حران الأمريكان ، نواة مدينة كبيرة ومنظمة ، وقد عمق الكاتب هذا التباين بين الأمريكان والعمال العرب من خلال صورة متحركة ، تبن مراحل بناء حران الأمريكان ، فالعمال العرب هم الذين قاموا بالبناء ، إذ ثبتوا الألواح الخشبية البيضاء ببراغي قوية ، ثم وضعوا العوارض الحديدية فوق هذه الألواح ، كما ثبتوا الزجاج وعاكسات الشمس ،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٦

(٢) نفسه ، ص ١٨٨

(٣) نفسه ، ص ١٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقاموا بطلائها ، ولم تقف المفارقة بين العرب والأمريكان عند هذا الحد ، بل تعدّت ذلك ، ليصبح العمال العرب موضع سخرية للأمريكان [١] .

وإذا نظرنا الى طبيعة المكان الذي أنشئ ، نجد أنه يمتاز بالثبات والرسوخ ، ويمتلك عناصر القوة . مستمداً ذلك من قوة الحملة الأمريكية وهيمنتها ، وقد جاء ذلك متمشيا مع مقاصد الكاتب للتعبير عن النوايا الأمريكية للالتصاق بهذا المكان والسيطرة عليه .

وقد ترتسم لنا صورة لحران العرب ، مناقضة تماما لحران الاميركان ، إذ تقوم حران العرب من بقايا الصناديق الخشبية وألواح الزنك ، إضافة إلى مجموعة من الحجارة غير المنتظمة ، وهذه المواد جمعت على عجل ، أما السقوف فكانت « خليطا من الزنك وأقمشة الشوادر والكرتون وبقايا الأغصان التي تخلفت بعد قطع الاشجار »[٢] ، وهكذا أقيمت الدكاكين الأولى في حران العرب ،

فإذا تأملنا في طبيعة هذا المكان نجد أنه مفكك ، غير ثابت وآني ، وهو معرض للزوال مع أية هبّة ريح بسيطة ، ولعلّ الكاتب وظّف المكان بكل مظاهره الهشة ، ليعبر به عن طبيعة الحياة التي ستكون في هذه المنطقة ، فدعائمها غير ثابته ، غير قوية ، لم ترتكز على أساس متين ، لذلك فإنها لا تستطيع المقاومة وستزول مع أول هزة تتعرض لها .

من جهة أخرى ، فإننا نلاحظ هنا التناقض العمراني بين المدينتين ، ففي حين تقوم حران الأمريكان بكل مظاهر المدينة الحديثة ، تبنى حران العرب بشكل بدائي، يتماشى مع طبيعة سكانه ، وبازدياد الوافدين ، بدأت حران العرب تتسع وتتضخم ، « فالسوق الذي بدأ بثلاثة دكاكين ، ما لبث أن أصبح شيئا عجيبا ، وكانت الدكاكين تقوم كل يوم ، ودكاكين من كل شيء ومن كل حجم ، أبنية قوية راسخة، وأخرى عبارة عن صناديق خشبية كبيرة تقوم في التو واللحظة »[٣] فنلاحظ

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٦.

(٢) نفسه ص ٢٢٦.

(٣) نفسه ، ص ٣٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن العمران جاء مشوها ، لا يتلاءم مع حياة ساكنيه ، ولعّل الكاتب قصد من وراء هذا التناقض إظهار بدائية الإنسان العربي وعفويته في تكوين الأشياء ، كما نلاحظ أن المكان سيطرت عليه الفوضى في جميع تجلياتها ، كي يكون ذلك متمشيا مع الحياة التي ستقوم فيه .

ويبين لنا الكاتب تطور المدينة ، والمراحل التي تمر بها ، فيرسم لوحة شاملة لتطور حران ، موضحاً بذلك التطور الذي حصل فيها من الناحيتين الجغرافية والاجتماعية ، فبنى لنا مجتمعا كاملا تشوبه التناقضات والصراعات ، وهذا ما سنبينه فيما بعد ، ولعلّ أهم هذه التناقضات تجسدت في الصراع الطبقي بين العرب والأمريكان من جهة ، ثم وبين العرب أنفسهم من جهة اخرى ، ومن خلال ذلك نرى أن حران الأمريكان ، كانت تنمو وتتسع يوماً بعد آخر ، وبنموها واتساعها تزداد غرابة ، ولم يسمح للعمال العرب أن يقتربوا من بعض الأماكن ، فكانت حران الامريكان شيئا جديدا بالنسبة لهم ، على الرغم من أنهم بنوها ، إذ أضاف لها الأميركان أشياء جديدة ، أشجار ونباتات كثيرة ومختلفة زرعت في أوان كبيرة وصغيرة ، كما دهنت البراميل باللون الأبيض ، وامتلأت بالخضرة، وكذلك الشوارع التي كانت من التراب ، فرش عليها سائل أسود وأصبحت شيئا مختلفا ، كما أضيفت أبنية أخرى للأبنية التي أنشئت من قبل [1] ، وقد وظف الكاتب هذا المكان ،ليبين انبهار الإنسان العربي أمام الحضارة الأمريكية وعدم قدرته على مجاراتها كما بين من خلاله التطور المستمر لهذه الحضارة وعدم وقوفها عند حد معين ، إذ استمر وصول البواخر يوما بعد آخر ، ومع كل باخرة يقوم شيء جديد في حران، يزيد من الشرخ الذي فسخها عن الحياة العربية القديمة .

أما فيما يتصل بالتباين في الحياة الاجتماعية العربية ، فقد بين لنا الكاتب ، كيف أن هذا التغير أدى إلى شرخ كبير في العلاقات الاجتماعية ، بسبب ظهور الطبقية التي تمثلت في أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة ، وعلى رأسهم السلطة الحاكمة ، لذلك قامت المنافسه في بناء البيوت ، بعد أن ابتدأت ببيت الأمير

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خالد، فأوصى أن يكون بيته واسعا ، والشبابيك واسعة وجنوبية ، وأن يكون في النهاية مشابها لبيوت الأمريكان، ولعلّ الكاتب قصد من خلال هذه الحياة ،توضيح تبعية الإنسان العربي للإنسان الأمريكي ، ومحاولته مجاراة التطور الذي يوصله إلى صف ذلك الانسان ، لذا بنى تجار حران الكبار ، بيوتا لهم ليكون ذلك خطوة أولى لمجاراة متطلبات المرحلة الجديدة ، فقرر عبدالله السعدي بناء بيت له يوازي بيت الإمارة ، كما قرر إبن الراشد بناء بيت وسط السوق ،يتكون من ثلاثة طوابق ، ويوما بعد يوم ، قامت البيوت الفخمة وأصبحت هذه البيوت لا قيمة لها[١].

إضافة إلى ما تقدم ، كانت هناك بعض البيئات الصغيرة ، التي لم تؤثر تأثيراً فاعلاً في بنية الرواية ، إلاّ أنها بيئات لها خصوصيتها ، وتأثيرها في الإنسان، وأهم هذه البيئات ، العوالي ، والتي استولى عليها السلطان خربط ، بعد معارك ضارية ، وقد أظهر الكاتب ، البعد النفسي لأهل العوالي ، الذي يؤكد من خلاله إنسانية مكانه وخصوصيته ، إذ كان لأهل العوالي عادات وتقاليد يتوارثونها جيلا بعد جيل ، وأهم هذه العادات ، الغناء والطرب ،اللذان يرون فيهما تعويضاً لهم ، عما يدور في نفوسهم من أحزان[٢] ، إلا أن مجئ السلطان إلى المنطقة ، ومنعهم من الاستمرار في طربهم ، أدى إلى حدوث صراع بين أهالي المنطقتين نظراً لتغير المكان من جهة . واختلاف العادات والتقاليد من جة أخرى ، وسنوضح ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني .

ولعلّ الكاتب لجأ إلى وصف الحياة الاجتماعية في هذه المنطقة ، ليوظف المكان للتعبير عن خصوصيته وتأثيره في إنسانه ، وليبين من خلال الصراعات التي تنشب بين أهالي المنطقتين ، طبيعة الحياة في هذا المكان ، وتكالب الزعامات

---

(١) التيه، ص ٣١٧

(٢)نفسه، ص ١٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العربية من أجل الوصول إلى السلطة .

أما منطقة عين نبات فقد رسمها الكاتب بلوحة مكانية مبسّطة « على مسافة مائة متر من الظهرة ، حيث تتفرع التلال هناك ، لتشكل فيما وراءها مجموعة من الأودية ، وحيث تنبسط الأرض انبساطا طلقا ، حتى تبدو مثل منصة تشرف على التلال من ناحية ،وعلى الأودية وتشعباتها من ناحية ثانية [١]، ولعل هذه الملامح البسيطة للمكان ، توحي بأن الكاتب يتكلم عن مكان بدائي ، بسيط وهذه البقعة البسيطة جعل لها الكاتب بعدا تاريخيا عميقا ، إذ كانت المفاوضات تجري فيها بين السلطان والإنجليز ، كما بين أهمية المكان من ناحية أثرية وحضارية ، فوصف نقوشها الصخرية ، التي يعود عهدها إلى عهد ثمود ، أما تلك الصخرة المنعزلة، فقد نحتتها الطبيعة على شكل أبي الهول ، ونقشت عليها عبارة بلغ طولها سبعة إنشات إلى ثمانية [٢] .

فهذه الصفات لهذا المكان ، تعود إلى أصول عربية عريقة ، طبعت المكان بسمات عربية ، وقد وظفه الكاتب ليؤكد أصالة المكان ، ويؤكد عروبته وتاريخيته.

كانت هذه أهم البيئات التي عرض لها الكاتب ، ليدلل من خلالها على طبيعة الصحراء - المكان المفتوح - ولتكون فيما بعد مرتكزاً له كي يتمكن من خلالها ، من التعامل مع عالمه الروائي ، والتعبير عن قضاياه التي وظف الصورة المكانية السابقة لخدمتها .

ولكن إذا عدنا إلى طبيعة الصحراء العامة ، نلاحظ أنها مكان مفتوح ، ولكنه مغلق في نفس الوقت ، بسبب طبيعته المنعزلة ، فالإنسان الذي عاش في هذه المنطقة ، اتسم بسمات ميزته عن غيره من المناطق الأخرى ، وجعلته منغلقاً على نفسه ، رافضا لأي تطور ممكن .

---

(١) تقاسيم الليل والنهار ، ص ٢٣٤

(٢) نفسه ، ص ١٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من أن ظروف الحياة في موران وحران وغيرها من المدن ، أجبرت الإنسان على التنقل والسفر ، فمثلاً في موران « لا يوجد واحد من الرجال في الوادي ، بخاصة في سن معينة ، لم تستول عليه رغبة السفر ، وقلما يوجد واحد من المسنين لم يسافر إلى مكان من الأمكنة[١] » وكذلك الأمر بالنسبة لحران ، إذ إن الهوس يستبد بالكثيرين ، فيذهب بعضهم إلى البحر ، ويسافر آخرون إلى أعماق الصحراء [٢] ، وذلك بسبب قربها من البحر ، إضافة الى أن القوافل التي تأتي إلى المنطقة تزّود المكان بأخبار العالم ، وعلى الرغم من كل ذلك فإن العزلة التي فرضت عليهم بحكم موقع الصحراء . « أنتجت شعوراً بالانفصال ، متمركزاً بالذات ، ولذلك يبدو إعادة تركيب المشهد الحياتي للناس في تلك البقع من الأرض مهم تماما »[٣] . فعلى الرغم من الانفتاح على المناطق الأخرى فيما بعد ، إلاّ أن الإنسان بقي منغلقاً على نفسه ، فاقداً لأي وسيلة للتأقلم مع الظروف الجديدة ، بغض النظر عن العادات الجديدة والظواهر الحضارية التي غزت المدن ، لأنها لا تتعدى القشرة الخارجية لتلك المناطق ، أو هي « بمثابة ديكور غير ملائم للمشهد العام »[٤] ، وقد قصد الكاتب من وصفه لبيئاته ، إلى إظهار الفوضى التي عمت تلك البيئات ، سواء من الناحية الشكلية أو الاجتماعية ، وذلك ليوكد على أصالة الصحراء ، واندماجها في ذات البدوي ، مما أدى إلى رسوخ وثبات ملامح معينة لهذه المنطقة ولناسها ، من الصعب على الأبنية الحديدية والزجاجية أن تمحوها .

من خلال هذا العرض لأهم البيئات الصحراوية لمدن الملح ، نرى أن الكاتب « لم يلجأ إلى التجريد والتعميم في تقديم هذه الخلفية المكانية ، بل جعل لها أبعاداً

---

(١) التيه ، ص ١١

(٢) نفسه ، ص ١٨٦

(٣) البطل الملحمي في روايات منيف ، أحمد جاسم الحميدي ، الأهالي ، للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ٣٩

(٤) بادية الظلمات ، ص ٣٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تميزها عن غيرها [١] ، كما أنه أجاد في رسم بيئاته ، وإعطاء كل منها خصوصية محددة لها ، مما ساعد على تشكيل مكان روائي له خصائص مميزة ، مكّنت الكاتب من الارتكاز على هذه الصحراء ، فمضى يعرض لصورها بكل أجزائها ، كي يوظفها في المستقبل ، ويبين من خلالها البعد الاجتماعي لهذه الصحراء ، فصوّر لنا واقع المجتمع البدوي قبل مرحلة النفط ، والذي امتاز بالبساطةواعتماد الانتاج المحلي في العيش ، ثم بدأ بالتمهيد التدريجي لحدث جديد ، غيّر في معالم المكان الأصلية ، لذلك اختلفت صورة الصحراء بين فترة وأخرى ، إلى أن تطورت وخرجت عن المعنى الحقيقي لكلمة صحراء ، وبدأت تدريجيا ، تدخل ضمن المكان المغلق ، نتيجة لاكتظاظها بالبيوت والقصور ، وما يتبع ذلك من متطلبات كما سيتضح لنا فيما بعد .

وبذلك . تجاوزت الصحراء بعدها الفيزيقي ، فظهر المكان متحركاً ، ولم يقتصر الكاتب بوصفه له ، على الحدود الهندسية فقط ، بل تعدّى ذلك ليحمل أبعاداً سياسية واجتماعية وفكرية واقتصادية ، استطعنا تلمسها من خلال وصفه لهذه الصحراء.

ب - البحر :-

البحر هو الوجه الآخر للصحراء ، إلاّ أن له قوانينه الخاصة ، إذا ما فهمها الإنسان وتقيد بها ، تودي به إلى طريق الهلاك ، فركوبه لا يعني أن يستقلّ الشخص قاربا ويصارع المياه ، فالبحر « ليس المياه والزرقة والأمواج ، إنه فلسفه كاملة ، تبدأ بالخوف ثم التأمل ، وأخيرا بالتواصل» [٢]

ولم تتجلّ صورة البحر في رواية مدن الملح واضحة ، وذلك لأنه مكان ،

---

(١) دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف ،
أبحاث اليرموك ، سلسلة الآداب واللغويات ع٢، مج ٣، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١ م منشورات
جامعة اليرموك ، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا ، ص ٥

(٢) بادية الظلمات ،ص٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظهر مصادفة نتيجة للتغيرات التي طرأت على المكان ، إلاّ أننا نلاحظ أن الكاتب -ومنذ بداية عرضه لهذه الصورة - قدّم صورة البحر من خلال أشخاصه ، لذلك ، أجدني مضطرة إلى الحديث عن صورته من هذا المنطلق .

فالبحر يرتبط بعلاقة خاصة مع أهل حران، لأنه أصبح جزءاً من تحديد جغرافيتها . وقد وظفه الكاتب هنا ليكون وسيلة إيضاح ، تعبّر عن انفتاح حران واتصالها بالعالم الخارجي ، ولعلّ الكاتب يشبّه علاقة البدوي بالبحر ، وموقفه من الاتصال الخارجي، بالمياه التي لا نهاية لها ولا حدود ، ومجرد النظر إليها ، يصاب الإنسان بالفرح والخوف معا .

فقد اتسمت العلاقة بين البحر والشخوص منذ البداية بالخوف والتشاؤم ، وأول مرة يرى فيها الرجال البحر ، كانت عندما ذهبوا إلى حران للعمل فيها ، وقد صوّر الكاتب علاقة الشخوص بالبحر ، ليؤكد دوره في الحياة المستقبلية التي ستبدأ في حران ، والتي تسيطر عليها الحركة والفوضى الناتجة عن وصول أهل حران للبحر ، والتي امتازت بالتردد والخوف من خوضها .

إن علاقة الخوف التي تحدّدت بين الأشخاص والبحر منذ البداية، تصور المخاطر التي سيخوضها أهل حران في ظل الحياة الجديدة ، وقد تجسّد هذا الخوف، عندما جاءت الباخرة إلى حران ، وكانت تحمل الآلات الجهنمية ، فطلب من العمال المساعدة في إنزال الآلات، إلاّ أنهم كانوا شديدي القلق . فابتعدوا مسافات كبيرة من الشاطئ وقالوا: « كل شيء نفعله إلا الاقتراب من الماء ... الماء غدار» [٢] ، فالماء هنا هوالمعادل الموضوعي للحياة الجديدة التي ستبدأ في حران ،ومجرّد الاقتراب منها أو المساهمة في التحضير لها ، سيؤدي بهم إلى الهلاك ، وقد ظهرت الآثار السلبية الأولى لهذه الحياة بموت مزبان ، الذي كان قد اختير هو وأخوه هاجم ، للمشاركة في قطع الصخور البحرية من أجل توسيع الميناء ، وذات يوم ، حيث تعوّد رجال البحر أن يذهبوا قبل غيرهم ، طُلب إلى ثلاثة من العمال

---

(١) التيه ، ص ١٧٢

(٢) نفسه ، ص ١٧٥ ، ١٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغوص لكي يثبتوا حبلاً في إحدى الصخور تمهيداً لقلعها ، وكان مزبان واحداً منهم ، فعاد الاثنان ولم يعد مزبان ، وبعد بحث طويل وُجد مزبان معلّقا في فجوة صخرة [١]

ولو نظرنا إلى الأمور من جهة أخرى ، نرى أن البدوي أكتسب صفة التأني والتأمل فيما حوله ، لذلك ، ظل يراقب البحر ، يتعرف على أسراره وخفاياه، حتى آخر لحظة ، فكسر طوق الخوف الذي كان يحاصره ، وانطلق من شاطئ إلى آخر يجوب البحار ، فنرى أن البدو الذين رفضوا الاقتراب من البحر في البداية ، ما لبثوا أن أخذوا باللعبة ، وبدأوا الاقتراب منه على مراحل ، فكان الواحد منهم « يقترب اقترابا حذراً لطيفا ، يمشي بموازاة الماء مدة طويلة ، محافظاً على مسافة لا يغيّرها ، حتى إذا أطمأن بعض الشيء ، خطا بسرعة وبخفة قط راسماً خطاً منكسراً ، مقترباً من الماء إلى أقصى حد » [٢] ، وهكذا نرى أن البحر بعد ما كان معادياً لذات البدوي ، أصبح شيئاً فشيئاً ، وسيلة له للاطلاع على الحضارات الأخرى ، والاتصال بمدن العالم ، وبذلك ، يكون البدوي قد اكتسب سلوكا متطوراً عن السلوك الذي منحته إياه بيئته الصحراوية .

وبما أن هناك علاقة جدلية بين الباخرة والبحر ، إذ لا يمكن دراسة أحدهما منفصلاً عن الآخر ، فسأدرس الباخرة على أنها حيّز مكاني ، ضمن المكان المفتوح.

فالباخرة هي وسيلة اتصال بين حضارات العالم ، وقد وظفها الكاتب هنا ، لتكون وسيلة لنقل الحضارة الامريكية إلى ميناء حران ، التي تسببت فيما بعد في إحداث تغيير جغرافي واجتماعي فيها .

وقد رسم الكاتب صورة للباخرة، تتمشى وحجم الآثار والتغيرات التي أحدثتها في المنطقة ، « شكلها يختلف كثيراً عن السفن التي وصلت من قبل إذ كانت تتلألأ بأنوار ملونه ، وقد حولت البحر إلى كتلة من اللهب،أما حجمها الهائل

---

(١) التيه ، ص ٢٧٩

(٢) نفسه ، ١٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهي تتقدم ، فقد جعل الناس في ذهول شديد ، لم ير أهل حران ولا العمال الذين جاءوا من الداخل شيئامثلها من قبل» [١]

فهذه السفينة بكل ما تحمله فوقها من مظاهر ، تعبّر عن الحياة الجديدة التي جاءت إلى المنطقة ، لذلك ، وظفها الكاتب لتكون رمزاً لتلك الحياة ، فهي ليست كالسفن الأخرى التي وصلت من قبل ، وما جاءت به لم ير أهل حران مثله من قبل، إذ وصلت النساء اللامعات من مختلف الجنسيات أما الحركة التي جرت فوقها ، والتي رافقت وقوفها ، فقد أحدثت تأثيراً عميقاً في نفوس أهل حران ، فتأثيرها لن يكون كبقية السفن ، وقد وضح الكاتب البعد النفسي لأهل حران عند مشاهدتهم لتلك السفينة التي أطلقوا عليها فيما بعد سفينة الشيطان ،اذ أنهم لم يذهبوا في اليوم التالي إلى عملهم ، بل ظلوا يتمشون على الشاطئ يراقبون ماذا يحدث داخل المعسكر، وقد ولّد ذلك في نفوسهم كثيراً من القلق والعصبية والذكريات ، لأنها كانت المرة الأولى التي يشاهدون فيها مثل هذه المناظر ، أما عندما حانت الصلاة ، فلم يذهب إلى المسجد سوى عدد قليل من الرجال [٢] ، أمّا عبده محمد - فران حران - فقد أصابته حالة نفسية صعبة ، بعد أن غادرت السفينة ، وقام بتزيين فرنه ببعض الصور التي انتزعها من المجلات ، ثم أخفاها بعد أعتراض أهل حران، وبقي معتكفا في فرنه شهوراً طويلة ، إلى أن أقيمت في حران أفران أخرى ، وضاع عبده محمد في دوامة الحياة [٣] .

وبذلك نرى أن الكاتب وظف البحر والباخرة ، ليبين من خلالها الآثار السلبية التي خلّفتها الحياة الجديدة في حران ، وقد أبدع الكاتب بتصويره للبحر ، وعلاقته بالأشخاص ، إذ امتازت هذه العلاقة في البداية ، بأنها علاقة تأثر لا تأثير ، لكن بانتقال الحضارات وانفتاح هؤلاء البدو على العالم ، أصبحت هذه العلاقة ،

---

(١) البتيه، ص ٢٠٢

(٢) نفسه ، ص ٢١٤ - ٢١٥

(٣) نفسه ، ص ٢٣٤- ٢٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متبادلة ، وأصبح البحر بالنسبة للبدوي جسراً للخروج إلى العالم ، وكسراً لطوق العزلة الذي يعيشونه ، وبذلك وجّه الناس أنظارهم إلى البحر ، وبعد أن كانت القوافل والأخبار تأتي من البر ، اتجهت الأنظار نحو البحر ، وأصبحت البادية صماء مقفرة ، لا يأتي منها شيء إلاّ نادراً . (١).

جـ- السوق : -

منذ البداية ، صوّر الكاتب هذا المكان بكل جزئياته ، ليخدم موضوعه السياسي ، ولكي يكون منطلقاً للأفكار السياسية فيما بعد ، لذلك ، نلاحظ أن صورة السوق لم تأت مجردة ، ولم تكن فقط عبارة عن تجميع كلمات، بل جاءت لتعبر عن حياة اجتماعية وسياسية تبين أهمية هذا السوق بالنسبة لأهل موران ، ومن خلال صورة حية للسوق ، استطاع الكاتب أن يؤكد عراقة هذا المكان وأصالته فصوّر لنا الحياة البدوية القديمة فيه ، بما تحويه من منازعات ومساومات ، وعمليات بيع وشراء لا تنتهي . (٢).

وقد يعد السوق من الأحياز المكانية التي تعكس تطور البلد ورقيها ، ففيه يجتمع البشر على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم ، إضافة إلى أنه يساعد في تجميع الأفكار كي يكون مصدراً لبث الوعي عند الشعوب في بعض الأحيان ، وخاصة في بلدة يسودها الخلل الاقتصادي الذي ينتهي إلى صراع سياسي ، يؤثر في أمن الدولة وفي نظامها أحيانا .

وإذا نظرنا إلى السوق في رواية مدن الملح ، نرى أنه ابتدأ بثلاثة دكاكين ، ثم ما لبث أن أصبح شيئاً عجيباً ، ففي لحظة ، اختلف شكل السوق ، إذ تجمعت فيه الدكاكين على مختلف المستويات ، وأصبحت فيها الأبنية الراسخة ، وأخرى بمنزلة صناديق خشبية تقوم في التو واللحظة ، أما سوق الحلال، فهو المصدر

---

(١) التيه ، ص ١٨٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأساسي لمعيشة أهل موران ، وهو بمثابة الرئة التي تتنفس من خلالها موران . وقد وظف الكاتب هذا السوق، ليبيّن من خلاله الأبعاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية له ، ففيه يلتقي رجال الأعمال لعقد الصفقات الخطيرة ، وإليه تصل الماشية والغرباء القادمون ، « صحيح أن هذا السوق ليس في وسط المدينة ، وليس مكاناً نظيفاً أو جميلاً ، لكنه بكل تأكيد أهم الأمكنة على الإطلاق [١] وسنرى فيما بعد أن هذا السوق ، سيؤدي ، دوراً مهماً في تأثيره في الشخصيات من ناحية، وفي أحداث الرواية من ناحية أخرى .

ولتأكيد صورة السوق في ذهن القارئ ، رسم له الكاتب لوحة فنية بيّن من خلالها موقعة وامتداده ، « ففي أقصى الشرق ، مع قليل نحو الغرب ، ... يقع سوق الحلال ، بسطة واسعة من الأرض ، مستوية ، قاصية ، في جانب منها آبار المياه ،وفي جانب آخر حظائر الماشية والدواب [٢] ، فهذه الصورة ، لوحة مكانية بسيطة ، عكس لنا الكاتب من خلالها طبيعة الحياة البدوية القديمة .

وبما أن للسوق بعده المكاني ، فإن شوارعه أيضاً تحمل أبعاداً مختلفة ، لأن هذه الشوارع ، ملتقى لأفكار الناس على مختلف طبقاتهم ومنها « ينطلق العمل الجماهيري ، كالمظاهرات والاضرابات نتيجة لطبيعة بنيته المكانية ، فهو الحاوي لظواهر المجتمع المادية، إليه يخرج إنسان البيت والمقهى والمدرسة ، وغيرها من الظواهر المكانية ، ليكون الملتقى ومكان التجمع» [٣] . ولعلّ لوقع الأقدام عليه ، قيمة جمالية ،تتمثل في أنها تعكس نفسية الفرد وطريقة تفكيره ، عن طريق خطواته ، ونلمس ذلك من خلال اللوحة الفنية التي رسمها لنا الكاتب أثناء حديثه عن الأحداث التي وقعت في شوارع حران بعد مقتل ابن نفاع ، إذ نزل العمال من المعسكر إلى حران ، وشاركهم جميع الذين كانوا في الأسواق «وحين

---

(١) الآخذود ، ص ٣٥٣.

(٢) نفسه ، ص ٣٥٣

(٣) المكان في الرواية الفلسطينية ١٩٤٨ -١٩٨٨ ، مها حسن يوسف ، ص ٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اقتربت الجموع من المقهى ، لم يبق أحد إلاّ وخرج ، وكان الخوف يزيد ويكبر مع كل خطوة »[١] ، وحين كانت الجموع تمر تحت النافذة « كان وقع الأقدام الثقيلة أشبه ما يكون بضربات أيد ماهرة في عجين لين » [٢] .

ثانيا : المكان المغلق :-

أ- البركسات :-

البركس هو بناية كبيرة وقبيحة ، تقام في التو واللحظة ، وتكون عادة مخصّصة لفئة متدنية اجتماعيا ، فقد تكون مقراً للمجتمات المضطهدة ، وقد تكون معسكراً للجنود ، وأحياناً تخصص لتربية الحيوانات .

والبركسات من الظواهر المكانية التي ظهرت واضحة في رواية مدن الملح ، إذ استطاع الكاتب أن يوظفها ، حتى يجعل لها دوراً مهما في تنمية عالمه الروائي .

ولما كانت البركسات مكاناً نلمس منه وضعاً متدنيا لساكنيه ، فليس عجيباً أن يحددها الكاتب لتكون مقراً للعمال ، إذا أن المعاملة التي يلاقونها من أصحاب النفوذ ، لا تختلف كثيراً عن معاملة الحيوانات ، التي تكون البركسات عادة سكناً لها ، كما وظفها الكاتب ، ليعبّر من خلالها عن التعددية الطبقية التي أنتجتها الحياة الجديدة ، بعد مجيء الحملة وإنشاء حران الأمريكان وحران العرب ، ففي حين تقوم حران الأمريكان بما تحمله من مظاهر المدينة الحديثة ، من إضاءة وخضرة وبرك سباحة، قامت حران العرب « تعبق بالحرارة ورائحة العرق والنوم، أما الجدران الخشبية البيضاء ، فقد تحولت خلال أسابيع قليلة إلى ألوان لا يمكن تمييزها ، بعد أن اختلطت وتداخلت بسبب الدخان والأيدي المعروقة والغبار» [٣] ونتيجة لذلك فقد تكونت علاقة عدائية بين البركسات وساكنيها ، سنوضحها فيما

---

(١) التيه ، ص ٥٤٥ ، ٥٤٩

(٢) نفسه، ص ٥٥٠

(٣) نفسه ، ٣٧٤ - ٣٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد .

إضافة إلى ذلك فهذه البركسات التي كانت لها ميزة في الصيف إذ كانت تمنع أشعة الشمس من الوصول مباشرة، أصبحت هذه السنة خانقة إلى درجة أن أحداً لا يستطيع أن يبقى فيها أكثر من دقائق قليلة [١] .

وقد تتجلي لنا الحياة الاجتماعية لهذه البركسات من خلال التباين الطبقي الذي وضحه الكاتب بين العمال العرب والعمال الأمريكان ، ففي حين يعود الأمريكان من العمل إلى برك السباحة والغرف المبّردة التي تصد ضوء الشمس والغبار والذباب ، يبدأ العمال العرب رحلتهم الشاقة ،فيغسلون الملابس ، وينظفون الخيام ويجلبون الماء ، وقد يذهب بعضهم إلى السوق لجلب الخبز والمعلبات[٢] .

أما البعد السياسي للبركسات ، فيبرز بعد أن أحاط الأميركان هذه البركسات بالأسلاك الشائكة كما حددوا الدخول من بوابة واحدة ، بعد إبراز البطاقة الصفراء ، لذلك وظفها الكاتب ، كي تخدم العامل السياسي، ولتكون مصدرا لاندلاع المظاهرات والاضطرابات التي كانت إحدى الأسباب في تغيير مسار الأحداث فيما بعد .

ب- المضافة :-

هي مكان يجتمع فيه أهل البلد لحل مشكلاتهم الداخلية ، أو المداولة في أمور الحياة أو أي شيء يخص العشيرة ، وتكون عادة عند كبير القبيلة، أي المختار ، وقد اتخذت المضافة من الخيمة مقراً لها في المجتمع البدوي .

ويصور لنا الكاتب البعد الفكري لأهل وادي العيون ، عندما جاء الأجانب

---

(١) التيه ، ص ٣٦٢

(٢) نفسه ، ص ٣٦٤-٣٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجلسوا في المضافة ، إذ اعتقدوا أن الجن دخلها بدخولهم لها ، لذلك ، يجب على ابن الراشد أن « ينقل المضافة من المكان كله ، لأن الجن سكنها من يوم وصلها الكفار ودخلوها [١] » فهذه المعتقدات التي يتمسك بها أهل الوادي ، تكشف لنا عن مرحلة معينة من مراحل الحياة البدوية القديمة، التي توضح سذاجة البدوي وبساطة تفكيره .

وبقيت المضافة مقراً لأهل الوادي، إلى أن وصلت الحملة ، ورحل أهل الوادي، فأصبحت المضافة عند الأمير خالد المشاري ، ويصف لنا الكاتب دار الإمارة الجديدة ، مبيّنا من خلال ذلك مظاهر التخلف التي كانت سائدة في المجتمع البدوي في ذلك الوقت ، إذ لم يكترث الأمير بشكل البناء وليس له شروط في ذلك ، إلا أن يكون البناء قوياً مثل بيوت الاميركيين وأن يكون واسعا [٢] .

فمن هذه النظرة التي كان يؤمن بها معظم البدويين ،يبين لنا الكاتب المراحل التي مرّ بها المجتمع البدوي للانتقال من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة ، والوسائل التي استعملتها القوى الأمريكية لتثبيت التبعية العربية لها ، إلا أنها لم تصبُ إلى هدفها ذلك الوقت ، لأن البدوي الذي حاول مجاراتها ، لم يستطع التخلي عن بداوته ، فكان الأمير يقضي معظم وقته في الخيمة التي نصبها على التلال الغربية بجانب دار الإمارة ، وعندما بدأت الأحداث تتعاقب على البلدة ، أصبح الأمير مشغولاً بنفسه وبمظاهر التطور . ولم يعد هناك مضافة لهؤلاء البدو ، وأصبح كل منهم يراجع أموره في المكان المخصص له .

جـ- المدينة الجديدة :-

تعد المدينة نموذجاً للمكان المغلق ، ونلاحظ أن المدينة في « مدن الملح » ، كانت في أصلها صحراء، ثم توسعت وامتدت بعد أن اكتشف النفط وجاء

---

(١) التيه، ص ٤٨

(٢) نفسه ، ص ٢٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأمريكان إلى المنطقة ، وقد صوّر لنا الكاتب الأبعاد الاجتماعية والحضارية في هذه المدينة كما وظف الصحراء على امتداد صفحات الرواية ليبين لنا من خلالها بساطة البدوي وسذاجته ، وقد برع الكاتب في ذ لك حين وظّف المدينة لتأكيد هذه النظرة ، فضاع البدوي في دوامة الحياة بعد أن وصلها الغرباء واستغلوا بساطته ، ليصلوا عبره إلى ما يريدون ، فبنوا القصور والمؤسسات ، وأصبحت القصور السمة الأساسية التي انطبعت بها المدينة الحديثة ،لذلك ،أهتم بها الكاتب اهتماما خاصاً ، فرسم لها لوحات تفصيلية ، توضح لنا الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة فيها ، بما تحويه من مؤامرات واضطرابات داخل غرفها ، ولعلّ بعثرة المكان واتساعه هما اللذان يؤديان إلى هذه الاضطرابات ، إذ كان القصر الواحد يحوي عشرات الأجنحة والغرف ، وعلى جانب كل غرفة يقف الحرس والخدم ، أما البناء الرئيسي ، فموقعه في الوسط ، وتشغله ثلاث من نساء السلطان المقرّبات ، وهذا البناء ،وهو من طابقين ، له شرفات تطل من جانب على الديوان الكبير ، ومن جانبين آخرين على الأبنية الملحقة ،وأغلبها مستحدثة .. الخ» [١]

ولعل هذا الرسم التفصيلي للقصور يكشف لنا عن الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة فيها ، ففي قصر الروض ، وضمن ذلك الحشد الهائل من الصغار والكبار ، ووسط مهرجان من اللغات والألوان ، لا تجتمع في أي مكان آخر ، تعم الفوضى والأضطرابات ، والوافدون الجدد لا يجدون مكانا للنوم أو وضع الأشياء،على الرغم من وجود عدد كبير من المشرفين والمراقبين [٢] لذلك فإن مكاناً مثل هذا تعمه الفوضى من جميع النواحي ، معرّض لأن يكون مركزاً للحيل والمكائد ، وبمرور الوقت ،نرى أن هذه القصور أصبحت مراكزاً للخديعة والتآمر والتجسس والخيانة الزوجية ، فلجأ الكاتب لتصوير هذه القضايا ، كي يوضح من خلالها ، الحياة الاجتماعية والسياسية التي سادت في تلك المنطقة ، مستخدما

---

(١) تقاسيم الليل والنهار ، ص ٣٦

(٢) نفسه، ص ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القصور لخدمة غرضه ، فظهر عندنا التباين الطبقي على المستويين الفردي والجماعي ، مما أدى إلى التفكك في الروابط الاجتماعية ، وسنوضح هذه الظواهر في الفصل الثاني من هذا البحث .

أما من الناحية العمرانية ، فقد وظّف الكاتب المدينة ليبين مواكبة المنطقة للبلاد الأوروبية بمظهرهاالخارجي ، إذ امتلأت الصحراء بالفيلات والبيوت المبنية على الطرازين الياباني الإنكليزي ، وقد قصد الكاتب من ذلك إظهار الصراع بين الماضي والحاضر ، فإلى جانب تلك البيوت الفخمة ، ظهرت البيوت الطينية الواطئة [١]

وفي حين صوّر لنا الأماكن العربية بتخلفها وتناقضاتها ، فقد صور الاماكن الأجنبية بحضارتها ورقيّها ، فظهرت المدينة الأوروبية بأبنيتها وطرقاتها وحدائقها وسياراتها هذه المدن التي لا تنام ولا تدع أحداً ينام ، حتى في ساعات الصباح الأولى ، ترى الرجال والنساء في المقاهي ، في المطاعم ، في كل مكان ....»[٢] .فمن خلال هذه الصورة الاجتماعية ،أراد الكاتب أن يبين تخلّف الإنسان العربي وانبهاره أمام العظمة الأوروبية .

وإذا نظرنا إلى المدينة بشكل عام ، نجد أنه على الرغم من اتساعها وانفتاحها على مدن العالم ، إلاّ أنها تعد نموذجا للمكان المغلق ، وقد يكون تحديد المكان المغلق أو المفتوح ، تبعاً للحالة النفسية للأشخاص ، فقد كان الحكيم يلجأ إلى غرفته عندما يكون في ورطة أو يكون متعب النفسية ، وربما يكون ذلك بسبب ما توحيه جدران الغرفة من ثبات وانغلاق ، فيشعر الإنسان وكأنه محاصر داخل جدران تستطيع حجب المخاطر عنه ، لذلك نراه يلجأ إلى زاوية الفندق للاحتماء بها ، في حين نرى أن شمران العتيبي كان يصعد إلى سطح بيته ليجلس طويلاً يستمع إلى برنامج البادية الذي يشدّه إلى الصحراء ، فيشعر أنه في عالم مغلق على

---

(١) الأخدود ص ٤٧٩

(٢)نفسه ، ص ٢١٦ - ٢١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفسه .

لذلك فإننا لا نستطع الحكم على مكان ما أنه مغلق أو مفتوح ، إلاّ إذا ربطناه بطبيعة الشخصيات ونفسياتها ، لذا ، فستأتي دراسة صور المكان فيما بعد مرتبطة ببقية عناصرالرواية الأخرى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني :- بنية الرواية

أولاً: علاقة المكان بالشخصية

١ - الناحية الجسدية

٢- الناحية النفسية

* الشخصية والمكان الأليف
* الشخصية والمكان غير الأليف
* الشخصية والمكان المعادي

٣- جدلية المكان والزمان وأثرهما في سلوك الشخصية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشكل المكان عنصرا بارزاً من عناصر البناء الروائي ، لا ينفصل عن العناصر الأخرى ، ولا يحدث أن تبنى رواية بمكان دون زمان ، أو بمكان دون أي عنصر من عناصر العمل الفني ، بل تتم بدمج جميع العناصر ، لتخرج في النهاية بعمل فني مميز ، « والكاتب عندما يبدأ في بناء عالمه الخاص ، سوف يصنع عالماً مكوناً من الكلمات ، وهذه الكلمات تشكل عالماً خاصاً خيالياً ، وقد يشبه عالم الواقع ، وقد يختلف عنه[١] »

وليس شرطاً أن يكون المكان واقعيا ، بل يعمد الكاتب إلى خلق مكان مجازي ليدلل به على المكان الواقعي ، فالمكان الروائي ليس فقط بأبعاده الجغرافية والهندسية ، بل يتعدى ذلك ليحمل أبعاداً اجتماعية وتاريخية وسياسية من خلال تخلقه في العمل الروائي .

وتتجلى قدرة الكاتب في خلق المكان وتوظيفه توظيفا جيداً ، يساعد في فهم الزمان والشخصيات والحدث وبقية العناصر الأخرى ، كماتتجلى قدرته في طريقة توظيفه لهذه العناصر مجتمعة ، وذلك لجذب القارئ نحو عالمه الروائي « فالرواية في معرض تأسيس عالمها الداخلي الخاص بها ، يجب أن تزيل العالم المحيط أو ترحله ، فالمؤلف يلزم أن يثير اهتمام القارئ ، ويوقعه في شباكه في عالم روايته المستقل ذاتيا ، فالرواية يلزم أن تحررنا من عالمنا متيحة لنا أن نهاجر إلى العالم الروائي ، متقمصين ذلك ، وباقين فيه ، مانعة إيانا من العودة[٢] » .

كما أن الكاتب المبدع هو من يستغل كل طاقاته في تجسيد المكان من خلال استغلاله للأشياء وإعطائها إيحاءات تدلل على تاريخيتها وقيمتها في المجتمع ، لذلك ،فإننا نرى الأشياء قبل دخولها النص الأدبي ، مجردة أتية إلينا عبر المجتمع، ولكن، بعد دخولها للنص ، تطرأ عليها تحولات وتبدلات تعكس قيمتها ، وتحدث

---

(١) سيزا قاسم ، بناء الرواية ، ص ٧٨

(٢) مورس شرود /، وآخرون ، نظرية الرواية - علاقة التعبير بالواقع ، ت .محسن الموسوي ، منشورات مكتبة التحرير ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص ١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها تاريخية معينة [١] ، فتعطي أبعاداً زمانية ومكانية ،وذلك بالاعتماد على لغة الكاتب ومخيلته « فالمخيلة الواعية عندما تتفتح على الواقع ، نجد لها من العمق والفهم ، ما يجعل الفن القصصي يطرق طرقا جديدة لاستيعاب هذا الواقع ، إن الاهتمام بالمكان الوطني وبالتاريخ الاجتماعي لا يعني أننا نضع أمام القاص وجهة نظر محدودة للفهم ، بل نحاول من خلال ذلك « الانفتاح على أطر جديدة للواقعية الاجتماعية ،بما يجعلها قادرة على استيعاب مستويات المكان والتاريخ وبكيفيات فنية متطورة [٢] ».

مما تقدم ،نلاحظ أن المكان الفني قد يكون واقعيا وقد يكون خياليا غير أنه لا يقدّم بمعزل عن بقية العناصر الأخرى ، فهو في النهاية ، القاعدة الأساسية التي يستطيع الكاتب من خلالها أن يضفي أبعاداً مختلفة على الأشياء ، ويشد العمل الفني ، بحيث يتعدى كونه وعاءً يحتوي على الأحداث . ليصبح بالتالي «شخصية متماسكة ، ومسافة مقاسة[٣] بالكلمات ، ورواية لأمور غائرة في الذات الاجتماعية ، ولذا ، لا يصبح عطاءً خارجيا أو شيئاً ثانوياً ، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلا بالعمل الفني ، والرواية أو القصائد التي تحسن استخدامه ، إنما تسجل جزءاً من تاريخية الزمن المعاصر [٤] »

وسأحاول أن أجلو صورة المكان من خلال العناصر الفنية في رواية مدن الملح ،

---

(١) مواقف المكان ، الأقلام ،ياسين ، النصير ص ٣٨

(٢) إشكالية المكان في النص الأدبي ،ياسين التنصير ص٧

(٣) هكذا في الأصل

(٤) ، الرواية والمكان (ياسين النصير الموسوعة الصغيرة ١٩٥) ص ١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً : علاقة المكان بالشخصية :

الشخصية الروائية عنصر مهم من عناصر العمل الأدبي ، وقد تتجلى قدرة الكاتب في ربطه لهذه الشخصية مع بقية العناصر الأخرى ، وخاصة عنصر المكان ليصبح في النهاية المنبع الأساسي لهويتها .

وقد يلجأ الكاتب إلى وصف المكان ، عن طريق التلاعب بحركة الشخصية أو بحالتها النفسية، مما يعطي المكان مدلولات إضافية تفوق دوره محيطاً أو رسماً هندسياً ، وبذلك نستيطع تعرّفه من خلال حركة الشخصية فيه وتفاعلها معه «فالمكان ليس موضوعا أو حتى مقدماً من خلال وجهة نظر أي شخصية من الشخصيات ، ولا حتى من وجهة نظر الكاتب ، وإنما تتخلق صورة المكان من خلال الحركة فيه والحياة به ، ومن خلال التعامل معه بوصفه بديهية كحقيقة من حقائق الحياة ، إن لم يكن هو حقيقة الحياة الأساسية[١] » .

والشخصية الروائية هي شخصية إشكالية ، فبمقدار ما فيها من واقعية ، فإن الإضافات والإسقاطات تجعلها مختلفة ، وأكثر كثافة لتضفي دلالات إضافية ، كما أنها عبارة عن جمع لغير شخصية واقعية ، من أجل تعميق الشخصية وإعطائها دلالات إضافية ، لا تمتلكها شخصية واقعية بمفردها ، لذلك تبقى الشخصية الروائية ، وجهاً من وجوه الشخصية في المجتمع ، تنتمي إليه بكل مواصفاتها ، مهما تبلغ درجة الخيال عند الفنان لإحداث تغيير فيها ، ومع أنها مبنية من موهبة الكاتب وبنيته الفكرية ، إلاّ أنها تبقى مستمدة وجودها من «مكان معين ، وتعكس علاقات البطل المتشابكة في العمل الروائي ظروفاً اجتماعية وسياسية واقتصادية بعينها ،تؤثر تأثيراً حيوياً في تحديد هوية البطل ومصيره [٢]»

---

(١) صبري حافظ ، الحداثه والتجسيد المكاني ، فصول ، ع٤ ، مج ٢ ، ١٩٨٤ ص ٧٢

(٢) اعتدال عثمان، البطل المعضل بين الاغتراب والانتماء ، فصول ، ع٢ ، مج ٨ ١٩٨٢ ، ص ٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

.وبما أن الانسان إبن عصره ، فإن شخصيته هي خلاصة للقيم السلبية أو الإيجابية لذلك العصر ، وعندما يرسم الكاتب شخوصة يستمد صورةً وخيالاته ومشاعره ومزاجه الفكري ، من الواقع الذي عاش فيه ، ويكون خلقه لأشخاصه مستوحيا من واقعه ومستعينا بتجاربه التي مرّ بها [١] ».

وقد تتجلى براعة الكاتب في خلق اتصال وتمازج بين المكان والشخصية ، فيؤثر بها وتؤثر به ، بحيث يصبح المكان عاكساً لنفسية هذه الشخصية ، وما يجول بخاطرها ، ومهما يطرأ من تغير على هذا المكان ، فإن الشخصية تبقى ملاصقة له تتعرف على ذاتها من خلاله ، لأنه مهما تبلغ درجة التغير في هذا المكان ، فإنه يمتاز «بدرجة من الثبات النسبي ، فيساعد الأنا على التعرف على ذاتها ، ويساهم في حمايتها من عواطف التشتت والضياع ، التي توشك عمليه التغيير، أو بالأحرى التشويه ، أن تطيح بها بلا هوادة» [٢] ، ولعل هذه الثبوتية تساعد الكاتب أيضاًعلى تجاوز المكان الشكلي ليساهم في جعله « الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه ، ولذلك ، فشأنه شأن أي نتاج اجتماعي آخر يحمل جزءاًمن أخلاقية وأفكار ووعي ساكنيه» [٣] وبذلك يعد مرجعاً للعادات والتقاليد والسلوك التي تمارسها الشخصية ، كما يظهر لنامو قف هذه الشخصية من المكان ، من خلال إحساسها به ، وتآلفها مع هذه العادات والتقاليد .

وفي رواية مدن الملح ، نلاحظ أن الكاتب ، قد اهتم اهتماماً واضحا بالشخصيات ، فرسم عالمها الداخلي والخارجي ، معتمداً بذلك على المكان كما أعطى شخصياته صوراً تتناسب وعالم الكاتب الروائي ، وبذلك شكّل المكان الشخصية الرئيسية التي ربطت شخصيات الرواية بعضها ببعض ، فكانت

---

(١) عصام محمد الشطي ، الجمالية والواقعية في نقدها الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٧م ص ٧٣-٧٤

(٢) صبري حافظ ، الحساسية الجديدة ، واستخدامات المكان ، الاقلام ، ع ١١-١٢، ١٩٨٦ ص ٧٠

(٣) ياسين النصير ، المكان والرواية ، الموسوعة الصغيرة ١٩٥، ص ١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصحراء وما تفرع عنها من أمكنة فيما بعد ، سببا مباشراً في تحديد ملامح هذه الشخصيات وعالمها النفسي ، وقد تجاوزت الصحراء بعدها الجغرافي ، لتتخذ فيما بعد ، أبعاداً رمزية ، لها دلالات نفسية واجتماعية وسياسية ، فكانت معادلا موضوعيا لحالة الشخصية وواقعها النفسي . وهذا ما سنوضحه فيما بعد.

ومنذ البداية ،استطاع الكاتب أن يكوّن علاقة حميمة بين المكان والإنسان،وهذه العلاقة شملت ، نواحي عدة من شخصية الإنسان أهمها :-

أ- الناحية الجسدية :-

لقد امتزجت شخصية الوادي بشخصية أهله ، وذلك بسبب موقع الوادي وانعزاله ، فشكّل ساكنيه ، وأكسبهم ملامح معينة ، ربما لا نجدها فيهم إذا عاشوا في مكان آخر ، وقد برع الكاتب في اختياره لمكانه كي يكون في المستقبل مصدراً لتحديد هوية شخوصه ، كما أثر في تكوينهم الجسدي، ولا يمكن التمييز بينهم إلاّ بالسّن ، ورجاحة العقل على حد تعبيره ، لذا أعطاهم أوصافاً محددة ، فيغلب عليهم الطول ، أما وجوههم فإنها أميل إلى الطول ،لكنها تفيض بالراحة لفرط تناسقها وانسجامها، شفاههم رقيقة ، مع وجنات منسكبة دون بروز أو نتوءات من أي نوع [١] ،

ولو نظرنا في هذه الصفات نجد أن الشخصيات تأخذ الطابع القاسي في مظهرها ، ولعلّ ذلك مستمدٌ من قساوة الصحراء وصعوبتها إذ تمتاز الصحراء بملامح متميزة تختلف عن بقية المناطق الأخرى ، وتستمد منهاهذه الشخصيات عناصر استمرارهاوقدرتها على المقاومة ، وربما عمد الكاتب إلى إعطاء شخصياته سمات قاسية ، لتبيان صعوبة الحياة في الصحراء ، وقد لا يستطيع أي من البشر أن يعيش في هذا المكان المنعزل ، إلاّ إذا امتاز بصفات خاصة ، فالصعوبات التي يواجهها أهل الوادي ، تفرض عليهم نوعا من العلاقات المميزة .

ولم يقتصر تأثير المكان على صفاتهم الجسمية فقط، بل طبعهم بصفات خُلقية

---

(١) التيه ، ص ١٥-١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحدد علاقتهم بالغرباء ، وقد يكون لموقع الوادي أثر في فرض علاقات اجتماعية خاصة على أهله ، كي يتمكنوا من العيش بسهولة في هذه المنطقة ،فكانت الأمانة أهم ميزة يتميز بها أهل الوادي ، وذلك بحكم موقعه على الخط التجاري الرئيسي، ولعلّ ذلك فرض على القوافل التي تمر من هذا المكان ، نوعاً جديداً من التعامل مع أهل الوادي فالتجار الذين اعتادوا النوم إلى جانب أحمالهم ، كانوا يتخلون عن هذه العادة عندما يأتون إلى الوادي [١] .

كما أن الفراسة كانت أهم الصفات التي اتّسم بها أهل الوادي، بحكم موقعه على الخط التجاري الرئيسي ، فمعرفة القوافل بهذا الوادي وانجذابها له ولّد لدى أهله صفة الفراسة ، وأكسبهم خبرة بعمل القوافل التجارية ، بخاصة أنهم تعودوا ذلك من المراهنات الكثيرة التي كانوا يجرونها فيما بينهم لمعرفة مايحمله المسافرون وما تحمله القوافل [٢] .

ولعل انعزال الوادي عن بقية المناطق ، فرض على أهله أن يتعاملوا كبنية واحدة وأسرة متكاثفة ، فيضطر الشخص إلى العمل من أجل المصلحة العامة ، لأنه يعدّها جزء من مصلحته الشخصية ، وبذلك تندمج الأنا في النحن للحفاظ على المصلحة العامة في الوادي ، وكانت صفة التعاون من الميزات المهة التي طبع بها أهل الوادي ، ولا يكترث الشخص ،إذا سافر إلى الخارج وترك أهله وبيته، « فإذا سافر الأزواج والأخوة ، كان أصدقاؤهم يهتمون بالنخيل وبزراعة بعض المحاصيل نيابة عنهم، إنها عادة من عادات الوادي» [٣] ،

وقد تظهر إيجابية هذه العادات في أيام القحط والجفاف ، فما أن يسري الجوع بين الناس ، حتى يقدم أحد رجال الوادي جملا من جماله لانقاذهم ، وخلال فترة قصيرة يتحول الوادي إلى خلية من النشاط والحركة [٤] . وبذلك نرى أن هذه

---

(١) التيه ، ص ١٣

(٢) التيه، ص ١٠٠

(٣) التيه ، ص ١٣

(٤) التيه ، ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصفة فُرضت على أهل الوادي نتيجةلانعزاله ، واندراجه تقريبا تحت المكان المغلق ، كماصبغ أهله بنوع معين من السلوك، وهو التآلف ، إذ ألف الناس بعضهم وعرفوا القرابات ، وصارت جزءاً من حياتهم ، ولعلّ هذا ولّد في نفوسهم نوعاً من الثقة ، فإذا جاءهم غريب ، لا يمكنه أن يصل إلى مداركهم، وإذا فعل، فذلك بعد وقت طويل وبكثير من المعاناة القاسية ، لذلك فهم لا يبدون قلقا أو خوفا لأنهم يحمون أنفسهم في ظل تلك العلاقات الصلبة الراسخة [١] .

وإذا نظرنا إلى الصحراء بشكل عام ، نرى أنها ممتدة ، تحتاج إلى دقة في الحفظ ،لأنه بدون حفظ الأماكن ومعرفة الأشياء ، فإن الإنسان في هذه الصحراء القاسية معرّض للهلاك والفناء [٢] ، وعلى الرغم من أن الإنسان البدوي إنسان بسيط، إلاّ أن الفضاء الصحراوي يفسح المجال أمامه للتأمل والتفكير ، مما يكسبه صفتي التعمق والشك ، فعلى الرغم من البساطة التي تظهر على ملامحه لأول وهلة ، إلاّ أنه يخفي وراء ذلك كله نوعاً من المكر البريء ، « فهم بمقدار البساطة التي تميز سلوكهم وأقوالهم وردود أفعالهم، فإنهم شديدوا المكر ، أقرب إلى الغموض .. ، إنهم مثل الصحراء التي يعيشون فوقها ، إذ بقدر ما تبدو الصحراء بسيطة ، مكشوفة ، متشابهة ، فهي خادعة ، غدارة ، ولا يمكن للإنسان أن يستحوذ عليها » [٣] ،وكذلك أهلها ، فإنه من الصعب معرفة ما بداخلهم من النظرة الأولى ، أو إقامة صلة معهم من خلال التملق ، لأنهم يسمعون ويفكرون ويفهمون بطريقتهم الخاصة ، لذلك ،فهم كثيرو الشك ، ولا يثقون بسهوله [٤] .

أما صحراء موران التي امتازت بالخشونة ، فقد فرضت على إنسانها نمطا معينا من الحياة ، فأثرت قساوة الصحراء في سلوك هؤلاء البشر وطريقة تعاملهم، مع الأخرين ، وأصبحوا يمتازون بالخشونة ، وهم أقرب إلى الحراشف القاسية المتينة ، التي تراكم بعضها فوق بعض ، وجلودهم سميكة ، قساة ، لا يستطيع

---

(١) الأخدود ، ص ٢٣

(٢) تقاسيم الليل والنهار ، ص ٧٠

(٣) المنبت ، ص ١٣٠

(٤) تقاسيم الليل والنهار ، ص ٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحد أن يصل إلى مداركهم[١] فهذه الصفات مأخوذة من الصحراء ، وطبيعة تكوينهم الممثلة بالحراشف التي تراكمت فوق بعضها . مأخوذ من طبيعة رمل الصحراء المتراكم فوق بعضه .

ولعلّ خشونة موران وتقلباتها لمجاراة الحياة الجديدة ، جعلت أهلها هم النبات الحقيقي لها ، وهم كصحرائها ، فبمقدار ما تبدو الصحراء بسيطة ،إلاّ أنها تخفي في ثناياها أموراً غامضة ، وكذلك أهلها الذين يعيشون فيها ، فإنهم شديدوا المكر أقرب إلى الغموض ، [٢]

وقد أثرت خشونة الصحراء على حياة أهلها الاجتماعية ، فكانوا يكدّون لانتزاع اللقمة ، لأن طبيعة العيش هنا ، تفرض عليهم ذلك، وتبعا لهذا ،فقد تراوحت تصرفاتهم بين الكرم والبخل ، وليس لهم ميزان في التعامل « حين يقطعون ، فإنهم يفعلون ذلك بقسوة وحسم، وإذا أعطوا فإنهم يعطون بسخاء[٣] »

مما تقدم نلاحظ أن الإنسان من هذا النوع - المرتبط بالمكان والمكتسب جميع تصرفاته منه- يصعب عليه أي تغير مفاجئ للمكان، وأي تغير يطرأ على شخصيته في هذه المرحلة ، يكون تغيراً مصطنعاً ، جاء تلبية لمتطلبات المرحلة الجديدة ، ومجاراة لمراحلها الحضارية ، وبخاصة إذا تعلق هذا التغير ببدوي الصحراء ، فالبداوة «قيمة ومشاعر وأخلاق وسلوك ،يمكن أن ترحل مع البدوي حين يغادر باديته[٤] . ومهما حاول للتخلي عن هذه القيم ، فإنها تبقى ملاصقة له ، تؤثر في كل سلوك جديد يكتسبه من البيئة الجديدة .

وعلى الرغم من أن المكان يتسم بالثبوت نسبيا ، ويتبعه ثبوت في ملامح

(١) نفسه ، ص٦٨

(٢) تقاسيم الليل والنهار ، ص ٦٨

(٣) نفسه ، ص ٦٨

(٤) الريف في الرواية العربية ، محمد حسن عبدالله ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدبت ، ١٩٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ساكنيه ، إلاّ أن التغير ،لا بد وأن يؤثر فيه وبالتالي في ساكنيه ، فنرى أن التغير الذي طرأ على المكان في تلك الفترة لم يؤثر في شكل المدينة فقط ، وإنما تعدى ذلك إلى تغيير في ملامح البشر أيضاً ،فكانوا « طرازاً مشوهاً من المخلوقات ، أو أشبه ما يكونون بإحدى مراحل نمو الضفدع ، خاصة المرحلة المتوسطة ، حيث لم تعد تربطهم بما كانوه صله» [١] ، وهذا ما يؤكد عدم قابلية الإنسان في هذا المكان ، للتغير في تلك المرحلة .

ب- الناحية النفسية :-

* الشخصية والمكان الأليف :-

لقد تميز وادي العيون بموقعه الغريب الذي يبهر كل من يصل إليه ، فيدفعهم إلى التساؤل والعجب ، لكنه في نظر أهله شيء عادي وجميل ، « يبدو بنظر الذين يسكنون فيه مألوفاً ، وبعض الأحيان لا يثير تساؤلات كبيرة ، لأن هولاء تعوّدوا أن يروا أشجار النخيل تملأ الوادي ، وتعودوا أن يروا الينابيع تتغير في أمكنة عديدة [٢] . خلال فصل الشتاء ، ثم بداية الربيع» [٣] .

ولا يقتصر هذا الشعور على أهل الوادي فقط ، بل هو « جنة الدنيا » بالنسبة للقوافل ، فهو إنقاذ لهم من الموت ، بموقعه الممتاز ، وميزاته الكثيرة ، فهناك يستريحون ويشربون بعد العطش والتعب ، ويتأكدون من أشياء كثيرة تخص تجارتهم .

ونتيجة للمزايا التي يتمتع بها الوادي من حيث الموقع والخضرة ، اعتاد الناس نمطاً معيناً من الحياة والعلاقات الاجتماعية التي فرضها عليهم الوادي ، لذا نراهم يعشقونه ، ويرتاحون له نفسيا ، وقد أفرد الكاتب صفحات غير قليلة

---

(١) بادية الظلمات ، ص ٢٨٥

(٢) هكذا في الأصل

(٣) التيه ، ص ٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للحديث عنه ، وعلى الرغم من كل ذلك ،فقد بيّن أنه « لو ترك لمتعب الهذال أن يتحدث عن وادي العيون ، لقال كلاماً لا يصدقه أحد ، لأنه لا يقتصر على طيب الهواء أو عذوبة الماء الذي لا يتوقف يوماً واحداً في السنة ، ولا عن روعة الليل ، إنه يضيف أشياء أخرى كثيرة وخارقة ، ويروي قصصاً يعود بعضها إلى أيام نوح» [١] إذاً هناك مزايا أخرى خفيّة ، تجعل أهل الوادي يحبونه ويرتاحون له ، ولم يقتصر هذا الحب على الفترة التي عايشناها للوادي من خلال الرواية ، بل أمتد ذلك إلى فترات أخرى تلت هذه الفترة .

أما حين بدأ الوادي بالتغير ، بدأ البشر يتغيرون ويفقدون مشاعرهم تجاهه ، لأنهم اعتادوا نمطاً معيناً من الحياة ، وما أن تغير الوادي ،حتى تغيرت الحياة فيه تبعاً لذلك ، فغلبت عليهم مشاعر الاستغراب والتوتر والغضب ، نتيجة لما يرونه من عادات وتصرفات يمارسها الغرباء القادمون ، لا تتمشى وطبيعة المكان الذي يعيشون فيه « فبعد أن أقيم المعسكر وأصبح الأميركان يقضون وقت الظهيرة من كل يوم في الشمس مبطوحين على وجوههم لا تستر أجسادهم سوى سراويل قصيرة ... بد الأمر شديد الغرابة »[٢] فهذه المظاهر لم يتعود الإنسان البدوي رؤيتها ، لذلك، أثارت لديهم من الحنق والغضب الشيء الكثير ، أما النساء اللواتي كنّ يذهبن لجلب الماء ، فامتنعن عن ذلك ، واعتراهن الذعر ،و طغت على تصرفاتهن فيما بعد العصبية ,والنزق .

وكذلك الحال بالنسبة لحران ، فإن أهلها قد اعتادوا نوعاً خاصاً من العادات التي ألفوها ، والتي تحدد سلوكهم وتضع لها حدود ، لذلك امتازوا بالمحافظة الشديدة ، وما إن جاءت سفينة الشيطان ، بما تحمله على ظهرها من نساء شبه عاريات ، وما رأوه من علاقة الرجال بهؤلاء النساء ، حتى أصابتهم الدهشة والعجب،« وقد كانوا في حالة من العصبية والقهر واللوعة ، أكثر مما

---

(١) نفسه ، ص ٨

(٢) التيه ، ص ٧٩- ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانوا فرحين ، لأول مرة يمتلكهم شعور ساحق موجع بأنهم جاؤوا إلى هذا المكان بطريقة الخطأ ، ويجب ألا يبقوا طويلاً [١] .

من هنا نرى أن المكان الأليف تحول إلى مكان منفر بعد وصول التغيير المفاجيء إليه ، لأن الشخصية التي أصطبغت بصبغة المكان واكتسبت ملامحها منه ، وأصبحت تحمل صفات تتسق تماماً والصفات المطلوبة للعيش في هذا المكان فإنه من الصعب عليها ، بعد أن توحدت معه ،أن تستجيب وبسهولة لأي تغير مفاجئ يطرأ عليه ، لذلك نراها ، إما أن تستسلم لما هو حاصل ، أو أن تغادر .

ومن جهة أخرى ، فقد يولّد التغير المفاجئ في المكان الأليف ، صراعا نفسيا في نفوس الأبناء ، يؤدي في النهاية إلى الكراهية والنفور منه ، وقد يكون هذا الصراع ، أكثر صعوبة بالنسبة للمهاجرين الذين يعودون للمكان بعد فترة طويلة ، فيجدون أن الصورة التي ارتسمت له مدة طويلة اندثرت وحلّت محلها صورة مناقضة تماما لتلك التي ألفوها ، فلا تمت لها بصله ، وهذا ما حصل عندما عاد محمد السيف وعبد الله السعدي إلى حران ، بعد أن تركاها فترة طويلة ، فما أن رأيا المكان حتى سيطرت عليهما مشاعر الحزن والحدة ، وبدأت تتملكها مشاعر الخوف من عدم قدرتهما على العيش والتكيف مع هذه المدينة الجديدة [٢] .

ولم يقتصر تأثير التغير المفاجئ في المكان على الخوف والنفور منه ، بل يتعدى ذلك ليفقد المكان حبه واحترامه في نظر الشخصية التي اعتادت أن تراه في مظهر معين ، فهذه حران التي كانت امتداداً طبيعياً للصحراء ، وصاغت شخصية أهلها بألفتها وهدوئها ، ما أن بدأت حركةالعمران العشوائية تدب فيها ، حتى بدت كالأحشاء المتناثرة أو كأكوام القمامة في هذا المدى الصحراوي

---

(١) نفسه ، ص ٢٠٤

(٢) التيه ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللامتناهي[١] ، فنتيجة لفقدان البلد لمعالمها الأصلية ، تولّدت في نفوس الشخصيات حالة من التوتر والحزن، ولا يعرفون بعد هذا الذي حصل في المدينة التي ألفوها ، هل تعود إلى حالتها السابقة ، أو هل يصبح شيء من الانسجام بينهم وبينها ،أم أنها أصبحت كأي مكان آخر لا قيمة لها .

وقد يتحول المكان الأليف الى مكان غريب لا يمث للشخصية بأية صلة إذا ما طرأ عليه التغير .. فحين عاد فواز الهذال إلى وادي العيون للعمل في الشركة الأمريكية ، وشاهد التغير الذي حلّ بالوادي فوجيء ، وبدا له الوادي وكأنه لم يعرفه من قبل ،إذ لم تعد له صلة بالوادي الذي تركه ، حتى الريح التي كانت تهب في مثل هذا الوقت من السنة طرية منعشة ، أصبحت لفحاً قاسياً خلال النهار ،وبرداً ينفذ إلى العظم في ساعات الليل ، المخلوقات فيه غريبة ، متنافرة ، لذلك ،فهو لم يحتمل البقاء في هذا المكان الغريب ، وكاد أن يرجع خلال الساعات الأولى من وصوله ، لولا أنه لا يقوى على ذلك [٢]

وعلى الرغم من أن قيمة المكان والتحام الشخوص فيه لا تظهر ، أولا تكون عميقة إلاّ من خلال الرؤية العامة للشخصيات ، إلاّ أننا نلاحظ أن الكاتب عمّق صور المكان، عن طريق بعض الشخصيات منفردة ، فظهرت الشخصيات التي ترى في هذا المكان حياتها ، وتستمد منه قوتها واستمرارها، ومن ضمن هذه الشخصيات

١- متعب الهذال

منذ البداية حدّد الكاتب علاقة هذه الشخصية بالمكان ، إذ كانت علاقة خاصة تعشق المكان ، وقد هيأ لها الكاتب ، لتكون فاعلة ومؤثرة في أحداث الرواية ، فربطها بالمكان ، ليكون فقدانه موازياً لفقدان الشخصية ذاتها .

---

(١) الاخذود ، ٢٤٨

(٢) التيه ، ١٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالعلاقة بين الهذال والوادي امتدت منذ البداية إلى أصول عائلية قديمة ، تعود في بداياتها إلى تاريخ أجداده آل العون ، الذين جاؤوا إلى الوادي وانزرعوابه، وبدأ جده جازي الهذال حربه مع الأتراك ، لذلك فهو يعدّ تاريخ الوادي جزءأمن مجده ، فكان الشعلة المنبهة لأهل الوادي . وعندما جاء الأمريكان إلى الوادي ، وقالوا أنهم جاؤوا لحفر آبار لمياه ، لم يقتنع بذلك ، وبدأ يراقبهم ، فالأسئلة التي كانوا يسألونها عن القبائل ولهجاتها ونزاعاتها بالإضافة ، إلى الأدوات التي كانوا يحملونها ، كل ذلك ولد لديه مخاوف تزيد يوماً بعد يوم ، وتنبأ أن هؤلاء يريدون شراً بالوادي والناس [١] ، وفعلا لم يخب ظنه، فقد جاءت البعثة الأمريكية مع مجموعة من البشر والآلات ، وأقامت معسكراً في الوادي ، ثم بدأت التنقيب عن النفط [٢] ، وهنا بدأت حالة الهذال بالتدهور ، وقرر أن يذهب مع وفد من الوادي لمقابلة الأمير ،وكانت الصدمة الكبيرة حين رأى استسلام أهل الوادي أمام الإغراءات التي قدمها لهم ، وعندما جاءت الحملة إلى الوادي وبدأت بالحفر ، بكى بغزارة ، وكانت هذه المرحلة بالنسبة للهذال هي النهاية للذات والنهاية للمكان ، ومن هنا بدأت شخصيته تندرج تحت عالم الأسطورة وقررأن يرحل عن الوادي ، فركب ناقته العمانية وطار مثل خيمة كبيرة ، « أما حين بدأت حركته السريعة ، فقد أصبح مثل طير أبيض ، وبدأ يبتعد حتى تلاشى واختفى [٣] »

فالهذال مزج بالوادي ، والوادي مزج به ، وأي تغيير في المكان سيؤدي إلى إحداث تغيير في شخصيته ، وقد صعب عليه مراقبة مجده وتاريخيه وهو يندثر، فهو رمز للحياة القديمة ، لذلك قرر الرحيل ، وكان رحيله عن الوادي تنبيها لانتهاء مرحلة تاريخية معينة ، وبداية مرحلة جديدة ،

أما بعد الرحيل ، فقد دخلت هذه الشخصية عالم الأسطورة ،وأصبح الهذال

---

(١) التيه ، ٣٥-٣٦

(٢) نفسه ، ٦٩ - ٧٠

(٣) التيه ، ص ١٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رمزاً للرفض والتحدي ، فتجاوز المكان والزمان ، وظهر في كل مكان ، وكانت أول مرة ظهر فيها حول المعسكر ، إذ تمثّل الهذال لابنه شعلان ، ليذكّره بموقف أبيه وأجداده من الاحتلال ، وليبين له أنه كان موقفاً معادياً للأمريكانّ ، فكأن ظهوره جاء في لا شعور شعلان ، لكي يوقظه وينبهه إلى أن العمل في الشركة الأمريكية غير صحيح .

أما حين تمثل للجميع في روضة المشتى ، وفي المظاهرة التي حدثت بعد موت مفضي الجدعان ، فيذهب بعض النقاد إلى القول ، بأن القيمة الكامنة في أعماق هؤلاء الناس ، هي التي جعلتهم يشاهدون الهذال [١] ، لكن إذا عدنا إلى طبيعة المجتمع الذي عالجه الكاتب ، نرى أنه مجتمع بدوي ، غير مثقف ، لم يصل إلى المستوى الذي يؤهله لإدراك هذه القيمة ، وبالتالي ، ربما يكون تمثّل الهذا ل لهم ، جاء عن طريق لا شعوري ، وذلك بربطهم بين ما حصل في وادي العيون ، واختفاء الهذال آنذاك ، وبين هبوب العاصفة وصراخ ابنه فواز ، من هنا تنبهت فيهم روح المقاومة ، وأصبح الهذال بعد ذلك رمزاً للتحدي والرفض ، إذ حاولت كل شخصية من الشخصيات المقاومة ، تقمص شخصيته وتقليدها .

مما تقدم نرى أن شخصية الهذال ، كانت شخصية واعية ، منتمية للمكان ، أرادت أن تنقذ المكان من كارثة يمكن أن تطيح بهويته ، إلاّ أن نداءاتها كانت هباءاً ، مما أدى إلى ضياع المكان وضياع الذات في الوقت نفسه.

ب- مفضي الجدعان :-

لقد امتدت شخصية الهذال في شخصيات مختلفة ، أهمها شخصية مفضي الجدعان ، طبيب حران، الذي كان يداوي الناس بالطريقة العربية ، دون مقابل ، وعلى الرغم من التغيرات التي حصلت في حرّان ، إلاّ أنه لم يتغير ، « فمنذ جاء قبل سنين عديدة وحتى الآن لم يتغير شكله إلاّ تغيراً قليلاً لا يكاد يلحظ [٢] .

---

(١) يوسف ضمرة ، في مدن الملح ، قراءات نقدية ، أفكار ، ع٧٥ ، ١٩٨٥ ، ص ١٤٧

(٢) التيه ، ص ٥٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اصطبغت هذه الشخصية بصبغة الحياة القديمة في موران ، وكان تمسّكها بالأعشاب ومعالجة الناس بالطريقة البدائية ، وسيلة كافية للحفاظ على روح الحياة القديمة التي اصطبغ بها المكان .

وبدخول التغير السريع إلى المكان ، تولّد لدى هذه الشخصية صراع داخلي ، يعبر عن الرفض القاطع لكل مظاهر الحياة الجديدة، وبما أن المداواة بالأعشاب هي المهنة الرئيسية التي لازمت مفضي الجدعان منذ نشأته ، فإن زوالها سيؤدي إلى ضياعه وفقدان ذاته ،لذلك نرى أنه جسّد رفضه للتغير ، من خلال صراعه مع السلطات متخذاً من الحكيم جسراً لذلك ، فما أن جاء الطبيب المصري الى حران ، حتى انقلب الناس على مفضي وتوجهوا إلى الطبيب الشامي ، فكانت هذه المرحلة الجديدة ، مرحلة تحول في شخصيته فمفضي « الذي تعلّم السكوت خلال السنين الطويلة ، لم يستطع ذلك بعد الآن »[1] لذلك صمم أن يقاوم ،وأن يفجر هذا الصراع الذي في داخله، فسجن ثلاث مرات ، إلاّ أن هذه الشخصية الرافضة للهزيمة ، أبت إلاّ أن تستمر في المقاومة ، وبذلك يكون السجن هو نقطة التحول في شخصية مفضي ، إذ أعطاه دافعاً إيجابيا للتحدي ، فاختار الموت - لأن موته سينقذ القيم التي ستنهار- وذلك بتفجيره للصراع في نفوس الناس.

ويوماً بعد آخر ، ازداد خطر مفضي على السلطة ، لذا ، قُرِّرتصفيته فوُجد مقتولاً بجانب البئر في حران، وامتدت شخصيته فيما بعد ، لتصبح رمزاً للرفض والتحدي ، ولتتخذ جانبا أسطورياً ضخماً ، إذ تمثل للجميع ، وتحرك فيهم الصراع ، وأيقظ في قلوبهم حسّ الحياة القديمة ، وبدأ صراعهم مع السلطات .

٣- صالح الرشدان :-

شخصية صالح الرشدان شخصية مشابهة تماما للشخصيتين السابقتين ، فقد ارتبط ارتباطاً قوياً بالمكان ،وكان سوق موران بمنزلة الرئة التي يتنفس بها

---

(١) التيه، ص ٥١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صالح ، فأصبح جزءاً منه ، وإذا غاب عنه ،يبقى الناس يسألون عنه ليمازحونه ، ويأخذون رأيه في الأمور الكبيرة التي تجري حولهم [١].

وهذه الشخصية ، شخصية لامبالية ، لا تعطي الحياة أية قيمة ، فعُرف عن صالح أنه مجذوب موران، ومع ذلك كان يعبّر عن الفكر الجماعي وينطق بلسان البشر ، فكانوا يقولون من خلاله مالا يستطيعون قوله .

وبما أنه ارتبط بسوق الحلال ، واتخذه مقراً لمهنته ، فقد أحدث نقل السوق إلى العوالي صدمة كبيرة له -وكان هذا القرار قد اتخذه السلطان بعد التغيّرات التي طرأت على موران ، وذلك لمجاراة متطلبات المرحلة الجديدة - ومع ذلك فإن صالح الرشدان لم يمتثل للقرار ، وظل أسابيع لاحقة يتردد على السوق ، إلاّ أنه اضطر إلى هجره في وقت لاحق ، بعد أن هجره كل من فيه[٢]، وقد كان ذلك سببا أساسيا في ضياع هذه الشخصية واندحارها ، فالسوق بالنسبة لصالح الرشدان ،هو الشعور بالذات ، لأنه أحب مهنته التي كان يمارسها فيه ، وهي حذو الخيول ، فهو يجد فيها تحقيقاً لذاته ، لذلك نراه يحاول أن يعيد التوازن لنفسه عن طريق التخيّل ، فيرى السوق وقد عاد إلى مكانه، إذ عمته الفوضى نتيجة لحركة الدواب والبشر ، أما هو فلا يستطيع الالتفات إلى أحد لأن العمل أكثر من أن يطبقه أو يقدر عليه [٣] ، فهنا نلاحظ أن تأثير المكان في هذه الشخصية وزواله ، أديا إلى اختلالها وضياعها .

مما تقدم نرى أن المكان الأليف ، هو محور اهتمام تلك الشخصيات ، إذ عملت كل ما بوسعها من أجل رد الأذى الذي سيطيح به ، إلاّ أنها لم تستطع الوقوف في وجه الأحداث ، فكان ضياع المكان ، سببا رئيسيا في ضياع ذاتها ، وبذلك نرى أن المرحلة التاريخية الجديدة ، ولّدت صراعاً في نفوس هذه

---

(١) الأخدود ، ٣٦٠

(٢) نفسه، ٣٩٢

(٣) نفسه ، ٣٩٤ - ٣٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيات ، نتيجة لتغير مكانها الأليف ، الذي عمل الزمان على فقدانه .

كما نلاحظ أن الكاتب وظف المكان الأليف ، ليعكس من خلاله طبيعة الحياة السائدة فيه ،من خلال شخصياته ، وسنرى فيما بعد أنه على الرغم من التطور الذي حدث للأمكنة ، والذي أثر بدوره على الشخصيات ، إلاّ أن ذلك لم يتعد القشرة الخارجية ، إذ تغيرت حياة الناس وسلوكهم وأشكالهم ، لكنهم لم يكتسبوا ملامح المكان الجديد ، بسبب انتمائهم وحبهم لمكانهم الأليف ، فهم بطبيعتهم اكتسبوا ملامحه ، إذطبغهم بسمات خاصة ، لذلك تماهوا معه واندرجوا في الحياة القائمة به ، فكان من الصعب عليهم الاستسلام لظواهر التغير الجديدة ، فنجدهم وقفوا في وجه العوامل التي أدت إلى تغيير مكانهم ، وتشبثوا بماضيهم ، ولم تستطيع الأبنية الجديدة أن تغيّر ملامحهم ، وحتى تصرفاتهم ، فمن الصعب تغييرها ، ومهما حاولوا لمجاراة المدينة الجديدة ، لا بد وأن تبقى فيهم لمحات والعادات القديمة .

إضافة إلى ما تقدم ، فقد تبين لنا أن المكان الأليف ، منح الإنسان صفات معينة ميزته عن بقية المناطق ، لذا أصبح بقاؤه مشروطاً بوجود المكان، وأي تغير في ملامح المكان ، يؤدي بالتالي إلى إحداث أثر كبير في نفسية الشخصية وعلاقاتها الاجتماعية ، وهذا ما لاحظناه بعد تغير الأمكنة في هذه الصحراء. فالآثار النفسية التي أصابت الإنسان العربي نتيجة لتغير مكانه الأليف ، ظهرت أصلاً نتيجة لانبهاره أمام الحضارة الغربية وعدم قدرته على مجاراتها ، وبذلك تحوّل المكان الأليف إلى مكان معادٍ نتيجة لهذا التغير ، لأن أي تغير في المكان، سيسعى جاهداً إلى إحداث تغيير ولو بسيط في الشخصية، ليؤدي في النهاية إلى طمس الملامح الأساسية السابقة ، وإبراز ملامحها التي تتمشى ومتطلبات المكان الجديد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* الشخصية والمكان غير الأليف :-

منذ البداية ، ربط الكاتب بين الشخصية والمكان - المكان الأليف - وأعطى لهذه الشخصية ملامحها التي اكتسبتها منه ، لذلك كان من الصعب عليها الابتعاد عنه وتغييره ، أما إذا اضطرت ، فإنها تشعر بنوع من الغربة وعدم الألفة للمكان الجديد ، وهذا ما لمسناه من تصرفات المرافقين للسلطان في بادن بادن ، إذ كانوا يذهبون إلى الفراش مبكرين ، ويميلون إلى الصمت ، ويوماً بعد آخر ، أصبحوا مجبرين على العزلة ، لأن نفسياتهم تغيّرت، فلا أحد يطيق سماع كلمة من الآخر ، كما ازدادت الخلافات بينهم ، وأصبحوا يشربون الخمر علناً بعد أن كانوا يشربونها خفية [١] ، ويعزو الكاتب ذلك كله نظراً لاختلاف المكان ، إذ رأوا كل شيء في القصر ثقيلاً وخانقاً ، فهم لم يعتادوه ولم يألفوه .

ويؤدي تغير المكان إلى تغير في الشخصية ، وقد يختلف أثر هذا التغير تبعاً لطبيعة المكان الجديد ، فإما أن يكون تأثيره سلبيا ، وإما أن يكون إيجابيا ، وإذا كانت البيئة الجديدة مختلفة اختلافا كليا عن البيئة الأصلية للشخصية ، فإن بناء الشخصية يتأثر من جهة ،كما تتغير سلوكها من جهة أخرى.

وهذا ما لاحظناه في شخصية الأمير فنر -ابن السلطان خريبط سلطان موران- إذ تربى في عين فضه، مكان هادئ ، اكتسب منه صفاته وسلوكه ، فكان مثالاً للأدب والأخلاق ، أما عندما جاء إلى موران بفوضاها واتساعها، ووسط ذلك الحشد الهائل من الأمراء الصغار والخدم والحراس والزوار ، فقد اختلفت ملامح شخصيته اختلافاً كلياً .

ففي حين كان في عين فضة يشعر أنه أمير حقيقي وأنه كبير ، أصبح الآن يشعر أنه أصغر من النمل الذي يدب في عين فضة [٢] ، ويوماً بعد آخر ، استطاع

---

(١) المنبت ، ص ٨٧

(٢) تقاسيم الليل والنهار ، ص ٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التأقلم مع المكان الجديد ، فقلّت ألفتة للمكان الذي نشأ فيه ، وبدأ أبوه يعتمد عليه في أمور كثيرة ،وراح يسافر خارج البلاد ، حتى تغيرت شخصيته وانقلبت رأساً على عقب .

كما نلاحظ تأثير المكان في سلوك هذه الشخصية ، ففي اليوم الثالث لوصوله إلى لندن ، تخلى عن ملابس البادية ، وكان في البداية يرفض ما يعرض عليه من الشرب ، إلا أنه بعد ذلك أصبح يشرب دون حرج .

فهنا لعب المكان الجديد دوراً كبيراً في تغيير هذه الشخصية ، وقد كان التغيير ،تغييراً سلبياً غيّر في عاداتها وتقاليدها لتصبح شخصية مترددة ، لا تثق بنفسها ، فهو لا يملك الجرأة للشرب علناً في مكانه الأصلي ، لأن طبيعة المكان بعاداته وتقاليده، وحتى الدين كل ذلك يمنعه من الشرب ، حتى اللغة الانجليزية ، على الرغم من أنه ظل حتى النهاية خجولاً من استعمالها ، وحين يستعملها مضطراً ، فإن الكلمات البسيطة والعبارات القصيرة كانت تحرجه [١] ، أما السفرات الكثيرة بين سويسرا والنمسا والولايات المتحدة ، فقد كانت عاملاً مؤثراً في تغيير شخصيته ، وكأن شيئاً أشبه بالزلزال غير حياته ، فقد تعلّم الكثير ، وسمع ورأى الكثير ، لذلك تخلى عن بساطته وتواضعه ، وأصبح ينظر الى الحياة بشكل مغاير تماما ، وأصبحت تهمه المظاهر والسلطة ، فهنا نرى أن المكان عمل على تحديد ملامح هذه الشخصية باتجاهين متناقضين ، أما الاتجاه الإيجابي كان في انفتاحها على العالم وتعرفها عليه ، وأما الإتجاه السلبي فكان بفقدان هذه الشخصية لقيمها وعاداتها وملامحها الأصلية ، وبالتالي أصبحت شخصية مترددة تتأرجح بين ما هو مكتسب وما هو ثابت من عاداتها وسلوكها.

ولعلّ الانتقال فجأة ، من مكان منغلق إلى مكان منفتح تماماً من جميع النواحي ، يؤدي إلى إحداث نقله مفاجئة في سلوك الشخصية ، فحماد المطوّع الذي واجه صعوبات جمّة في الولايات المتحدة ، ومرض ودخل المستشفى ، إلاّ أنه كتب رسالة لصديقه ، قال فيها :إنه يحبذ لو يبقى في هذا المكان دون

---

(١) تقاسيم الليل والنهار ٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رقيب أو حسيب [١] ، وبعد عودته إلى موران ، لاحظ الجميع علامات التغير عليه ، إذا انقلب ليله نهاره ، ونهاره ليله ، وعندما كان يتجول في شوارع موران، شعر بالقوة لأول مرة ، وأن هذه القوة ليست بسبب الأجهزة وعدد الرجال ، بل هي المعرفة ، فهو الآن يعرف أكثر من الجميع . [٢]

فهذا التحول في مسار الشخصية ، كان المكان هو السبب الرئيسي فيه، وشعور حماد بالبدائية والضعف أمام الحضارة الأمريكية ، وقوة الإنسان الأميركي ، أثّر في شخصيته ومنحها القوة ، لتكون قوته مستمدة من قوة المكان الذي ذهب إليه .

مما تقدم نلاحظ أن موقع الصحراء المنعزل ، وانطواء أهلها على أنفسهم ، هما اللذان يجعلانهم يتلاحمون مع الطبيعة ويقدسونها وبمجرد انفتاحهم على العالم ، فإن توحدهم مع الطبيعة وألفتهم للمكان تقل تدريجيا عند بعض الشخصيات ، في حين تنهزم شخصيات أخرى أمام هذا الانفتاح ، ،ويكون المكان الجديد ، عاملاً مهماً في ضياعها واندحارها .

وقد يولّد المكان غير الأليف في نفس الشخصية الخوف والكره لهذا المكان فحين وصل الدكتور المحملجي إلى موران ،اهتزت مشاعره وأصابه الأضطراب وعاوده الأرق ، وما يشبه المرض،أما زوجته « وداد الحايك » فقد أصابها الاضطراب، ، وبدت لها موران « واطئة ، متباعدة ، وكأنها سلسلة لا نهاية لها من كتل طينية صماء ، وأشجار النخيل المتباعدة ميتة الخضرة ، عارية أو أقرب إلى العرى.. ، كانت مشاعرها مختلطة ، مضطربة ، وأقرب إلى التشويش».[٣]
وكذلك الحال بالنسبة لفريزة خانم ، عندما جاءت لتعيش عند ابنتها زوجة السلطان « أصيبت بضيق الصدر والهلع لما اصطدمت بعمران موران الذي لم يرق إلى مستوى عمران مدينتها ... أكثر من ذلك ، بدت لها موران بلدة موحشة،

---

(١) المنبت ، ص ٨٧

(٢) الأخدود ، ص٤٢

(٣) نفسه ، ص ٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقرب ما تكون إلى تلك الأحياء البعيدة والفقيرة عن وسط استانبول [١] ».

ومن هنا نرى أن الناحية العمرانية للبلد ، تؤثر أحياناً في مشاعر الشخصية وتظهره لها إما مخيفاًأو أليفاً .

أما إذا كانت الشخصية لا تتمتع بانتماء قوي للمكان الأليف - أي المكان الذي اعتادت عليه - فقد يتحول المكان غير الأليف إلى مكان أليف إذا ما قورن بمكان أخر ، قد يكون أفضل منه من الناحية العمرانية ، وهذا ما حصل مع حما د المطوع عندما ذهب إلى أمريكا ، فبعث برسالة إلى صديقه مطيع يبين له الناحية الحضارية التي تتمع بها هذه المنطقة ، ويتمنى له أنه يبقى ولن يعود .[٢]

* الشخصية والمكان المعادي

كثيراً ما يعكس المكان ما يجول بخاطر الشخصيات من الأحاسيس سواءاً أكانت فرحاً أم حزناً أم شعورا بالأمن أمالخوف ، وقد يؤدي انتقال الإنسان إلى مكان طارئ ، إلى حدوث صراع بين المكان والإنسان ، ينتهي أخيراً إلى تكوين علاقة عدائية ما بين الطرفين .

وقد يتجسد الشعور بعداء المكان وكرهه على مستوى الجماعة ، فأهل الوادي الذين عاشوا حياة إنسانية صبغتها الألفة والمحبة ، لما رحلوا عن الوادي، ومرورا بأمكنة جديدة ، ولمسوا قسوة الناس فيها شعروا أن الأمكنة قاسية ولا تعاش « إنها المرة الأولى التي تبدو لهم الأماكن معادية ، وفيها ذلك المقدار الهائل من القسوة ، فقد بدت لهم وجوه البشر في الأماكن التي مروا بها قاسية، صمّاء »[٣] ، فطبيعة الأماكن وقساوتها تنعكسان على أهلها والعلاقة معهم ستكون تبعاً لأماكنهم، وكذلك تكون أشيائها فقد انعكست قساوة المكان على مائه ، وبدا لهم مالحا وأقرب إلى المرارة ، فهم لم يألفوا المكان ، لذلك لم يألفوا ناسه وبالتالي أشياءه ، وامتازت العلاقة بينهم بالعدائية.

---

(١) الأخدود ، ص ٧٣

(٢) نفسه ، ص ٢١٦

(٣) التيه ، ٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذه الأماكن عادية في نظر أهلها ، والحياة فيها مألوفة ، إلاّ أن علاقة أهل الوادي الأليفة بواديهم ، وكذلك الحياة الأسرية المترابطة بين جميع أهل الوادي ، ولّد لديهم هذا الشعور عندما لمسوا قساوة الناس في المكان الآخر .

وكذلك الحال بالنسبة للعمال العرب في حران ، إذ أجبروا على الانتقال من الخيمة إلى البركسات التي أقيمت حديثا ، لتصبح الخيمة مكاناً لعمال جدد آخرين ، وانتقلوا بعواطف متباينة ، فمنهم من رأى أن البركس أفضل من الخيمة ، ومنهم من رأى أن مجرد الانتقال من الخيمة إلى أى مكان آخر ، سينقلهم من حياة الضيق إلى حياة أفضل ، إلاّ أن هذه البركسات أحدثت كثيراً من رأى المشكلات نظراً لاختلاف هوايات العمال ، فمنهم من اعتاد على السهر للعب الورق ،ومنهم من كان ينام مبكراً ، إضافة إلى مشكلات التنظيف التي كانت تحدث بينهم يوميا [٢]

وعلى الرغم من محاولات العمال للتأقلم مع الوضع الجديد ، وتظاهرهم بالفرح في البداية ، إلاّ أن هناك بعض الملامح لا يستطيع الإنسان إخفاءها ، وتظهر من خلال الصراع الذي يحدث بين الإنسان والمكان، وقد يعكس المكان أحاسيس الشخصية دون قصد أوملاحظة منها ، فنتيجة للحرارة القاسية والرطوبة التي كانت في البركسات ، كانوا يخرجون منها شاحبي الوجوه ، غارقين في العرق ، شديدي الخوف والعصبية ، أما المراقبون ،فيبدون نشيطين في ساعات الصباح ، وما أن تأتي نهاية اليوم ،حتي يكونوا أكثر ضيقاً ، فتصبح « أصواتهم مبحوحة خافتة ، ونظراتهم خابية ، ويصبح أي سؤال أو أي تصرف يثيرهم إلى آقصى حد [٣]

فهذه الحياة الصعبة ، ولّدتها طبيعة البركسات ، فنرى أن العلاقة بين

---

(١) التية ، ٢٢

(٢) نفسه ، ٢٧١ - ٢٧٥

(٣) التيه ، ٢٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسان والمكان ، أصبحت علاقة عدائية ، إذ لم يكتف العمال بتوجيه نظرات حاقدة إلى سقوف البركسات التي كانت تمطر حرارة ، بل كانوا يبصقون عليها ، ويقذفونها بالأحذية ، وربما تكون هذه الحياة عادية للإنسان ، إذا عاش في هذا المكان في ظروف أفضل من هذه الظروف ، لكن الكاتب أراد هنا أن يبين لنا مراحل التغيرالتي مرت بها البلد من ناحية ، ويؤكد سلبية هذا التغير وما أحدثته الحياة الجديدة في هذه المنطقة من صراع نفسي بين الإنسان ونفسه والإنسان والطبيعة من ناحية أخرى .

وقد تلعب الحالة النفسية للشخصية دوراً كبيراً في تحديد علاقة المكان بالإنسان ، فتجعله يرى المكان الواحد بأكثر من رؤية تبعاً لتطور مزاجه النفسي[١]

فمحمد عيد الذي جاء إلى حران مع الدكتور المحجلي ، وكان بمنزلة اليد اليمنى له فرحل معه إلى موران ،كما آحتمل صعوبة العيش في هذا المكان نظراً لوجود حافز يشجعه على البقاء - وهو حبه لناديه قريبة الحكيم - إلاّ أنه لم يستطع العيش فيها للحظة واحدة عندماتخلى عنه الحكم ورفض تزويجه منها فرحل إلى حران . وهنا اختلفت نظرة محمد عيد للمكان ،نظراً لاختلاف نفسيته ، وبعد أن كانت جيدة نوعا ما ، عندما كنت حالته النفسية جيدة ، أصبح لها الآن وضع مختلف ،وتحولت العلاقة بينه وبين المكان إلى علاقة عدائية ، «فمحمد عيد الذي احتمل أصياف حران لمدة طويلة ، فإنه الآن وهو يصلها ، يشعر بالاختناق ، بسبب اختلاط العوامل الجوية والبيئية ، ومع ذلك كان بإمكان الإنسان ، أن يتعود عليها وأن يحتملها ، إلاّ أن الحالة النفسية التي تسيطر عليه، تجعلها مدينة معادية ، قاهره وأشبه ما تكون بالقبر» [٢] .

مما تقدم ، نرى أن الظروف الطارئة التي تطرأ على الشخصية والمكان ، تلعب دوراً مهماً في تحديد العلاقة بين الطرفين ، وكثيراً ما تؤدي إلى خلق

---

(١) عبد الفتاح عثمان ، بناء الرواية ، دراسة في الرواية المصرية ، مكتبة الشباب ، مصر ، ١٩٨٢ ، ص ٨٠

(٢) الأخدود ، ص ١٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صراع متبادل بين الشخصية والمكان ، ينتهي بتكوين علاقة عدائية بينهما .

جـ -جدلية المكان والزمان وأثرهما في سلوك الشخصية :-

لقد برع الكاتب في تكوينه للعلاقة الجدلية بين المكان والزمان وأثرهما في سلوك الشخصية ، كلّ حسب المكان الذي تعيش به ، « فالمكان والزمان يشكلان حالة ما ، أو وضعاً ما ، أو ذكرى ما للشخصية في الرواية ، وحركة هذه الشخصية من مكان لآخر ، تعني البحث عن وضع جديد ، عن عالم آخر ، تنسجم معه ، وتبتعد فيه عن الوضع - الزمن الماضي [١] »

وقد بين لنا الكاتب أثر الزمان - الطبيعة - في أهل الصحراء ، ومدى انعكاسها على تصرفاتهم .

وتتأثر العلاقات بين أهل وادي العيون والغرباء ، حسب تأثرهم بالطبيعة ، فسخاؤها يؤدي إلى سخاء أهلها ، وقحطها يؤدي إلى انعزال أهل الوادي وعدم قدرتهم على العطاء ، كما وتتغير تصرفاتهم حسب تقلّب المناخ ، إذ يعمل المناخ على تكوين مزاج متقلب للإنسان ، ففي سنوات الخير مثلاً ، يظهر الخير أولاً في وادي العيون ، فتخضرّ الطبيعة ، وتمتلئ أحواض المياه ، ويتصرف الناس في الوادي بطريقة لا يصدقها أحد ، وتغمر الفرحة قلوبهم ، فيزداد كرمهم وينسون الأيام الصعبة التي مرّت عليهم [٢] ، كما يسرفون في الإلحاح على المسافرين للبقاء فترة أطول « ويُظهرون تعففا زائداً في أن يأخذوا مقابل ما يعطون ، وتصطنع المناسبات لكي تجعل الكثيرين يمسكون عن الرحيل ، وفي مثل هذه السنين يتبدى الكرم حتى يبلغ حد الإسراف »[٣] .

---

(١) أحمد الزعبي ، في الإيقاع الروائي ، نحو منهج جديد في دراسة البنية الروائية ، دار الأمل ، ١٩٨٩ ص١١٨

(٢) التيه ، ص ١٠

(٣) نفسه، ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلاّ أن هذه الطيبة سريعاً ما تزول ، وتختلف باختلاف المواسم ، بخاصة قبل الصيف ، إذ يضيق الوادي ، ويتزايد البشر فتتزايد الأفواه التي تستقي من العين والآبار ، وتزدحم حول الماء ليل نهار ، فيولّد ذلك نزاعات ومصاعب وخلافات ، لذلك يتخلون عن طيبتهم ،ويصبحون بشراً من طبيعة مختلفة ، فيصبحون أكثر حدة وأكثر شراسة ، ولا يخفون ضيقهم بأشياء كثيره ، كما تزول الابتسامات عن وجوههم ، وتفارقهم الرغبة في أن يتحدثوا أو أن يطيلوا الحديث[١] ونظرا لذلك تقسوا الطبيعة في وجوههم ، فتختلف طريقة تعاملهم مع القوافل التجارية ، ويتركونهم يتصرفون بالطريقة التي تعجبهم ، فلا يلحون عليهم ، « أما إذا عرضت عليهم بعض السلع مقابل ما يقدمون من تمر وماء وخدمات أخرى ، فإنهم يتقبلونها شاكرين وبأقل الكلمات [٢] ».

ولا يقتصر تأثير الجفاف على سوء العلاقة مع القوافل التجارية ، بل يتعدى ذلك ليؤثر على علاقة الوادي بأبنائه ، إذ يشعرون أنهم ازدادوا إلى حد كبير ، ولا يستطيع الوادي احتمالهم ، لذلك لا بد للشباب القادرين على السفر ، من الذهاب إلى أماكن أخرى لتأمين لقمة العيش ، والحد من قسوة الطبيعة ، وقد أدى ذلك إلى وجود صفة معينة ميّزت جميع رجال الوادي ، إذ « لا يوجد واحد من الرجال في الوادي ، خاصة في سن معينة ، لم تستول عليه رغبة السفر ، وقلما يوجد واحد من المسنين لم يسافر إلى مكان من الأمكنة »[٣]

أما في الأيام العادية ، فتكون تصرفاتهم بين الوداعة والجنون ، إذ بمقدار ما يبدون مسالمين ، ممتلئين رضا، يندفعون إلى المساعدة دون مقابل [٤] ، يكونون في أوقات أخرى أقرب إلى الكسل ، وعند قدوم الخريف ، إذا نزل المطر ، ونما الزرع ، تتغير علاقات الناس بعضهم ببعض وتصبح أكثر مودّة .

من هنا نرى أن تذبذب المناخ، وترجّح الطبيعة بين العطاء والجفاء ، أديا الى

---

(١) التيه ، ص ٨٤٢

(٢) نفسه ، ص ١٠

(٣) نفسه ، ص ١١

(٤) نفسه ، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تذبذب في تصرفات أهل الوادي وعلاقاتهم بالآخرين ، فامتازت بالترجّح بين البساطة والسخاء ، والشراسة والبخل .

وهذه الحال لا تنطبق على جميع المناطق ، إذ نستطيع تمييز هوية المكان تبعاً لجوه، ففي الحدرة مثلاً ، لا ينتظر الناس المطر ، فقد خابت أمانيهم ، وإذا جاء فإنه لا يطول كثيرا ، وتكون الظلمة في لياليه مبكرة ، ومع تلك الظلمة ، برودة قاسية ،لذا تعوّد الناس أن يذهبوا إلى فراشهم مبكرين ، وأن تكون أحاديثهم قصيرة ، ولا تأخذ ذلك التألق الذي يلهب الخيال ، ويفجّر العواطف كما كان يحصل في وادي العيون [١] . على عكس موران التي ينزل فيها المطر فتنفرج الحياة ، مما يؤدي إلى بقاء الآباء والأبناء فلا يرحلون [٢] .

أما حران، فتختلف عن بقية المناطق ، فهي أكثر حرارة وأكثر رطوبة ، أما في فصل الصيف ، فهي الجحيم بذاته ، إذ ينعدم الهواء ، ويتشبّع الجو بالرطوبة مما يؤدي إلى صعوبة التنفس ، فتصبح الأجسام ثقيلة ، وتنبعث منها رائحة العرق ، فيصاب الإنسان بالعجز والتعب « حتى الجسد يصبح الإحساس بكل عضو منه إحساساً منفصلاً ، كما لو أنه رُكّب من مجموعة من أعضاء دون تناسق ، ودون لحمة تشدها بعضها إلى بعض [٣] » . وعندما يأتي فصل الشتاء ، ترق الطبيعة ، ويصبح الجو معتدلاً ، لكنه يصفو عدة أيام ،حتى يتساقط المطر غزيراً ، وبعد ذلك تهب رياح صحراوية مفعمة بالطيب ورائحة الأرض ، والأعشاب النادرة ، فتخلق في الأجسام قوة وتذكراً حاداً [٤] ، وقد يؤثر ذلك في حياة البشر مادياً ، فتعيش حران على الصيد ومساعدات المسافرين ، وقد تزداد الأيام صعوبة بسبب تقلب الطقس ، فيصبح الناس غير قادرين على الاحتمال ،

---

(١) التيه ، ص ١٥٩ ، ١٦٠

(٢) الأخدود ، ص ٣٥٢

(٣) التيه ، ص ١٨٥

(٤) نفسه ، ص ١٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينوون الرحيل إلاّ أن صور أبنائهم المسافرين تجذبهم نحو المكان ، فيضطرون للصبر والانتظار [١] .

وكذلك الحال بالنسبة لليل والنهار ، فإنهما يؤثران في سلوك الشخصية تبعا لطبيعة الحياة في تلك المنطقة ، فمثلاً موران ، بمقدار ضجة نهارها ، فإنها في الليل وفي ظل اللهب الذي تبعثه المصفاة ، مدينة الأشباح والصمت إذ ما عدا صافرات البواخر ، وهدير المحركات التي تصل من ميناء التحميل ، والذي لا يبعد أكثر من جبلين ، يظن الإنسان أنها جزء من وهج الصحراء التي عليها ، لذلك يضطر الإنسان إلى النوم مبكراً [٢] .

وقد نلاحظ التشابه الكبير في تصرفات الناس بين معظم أبناء الشرق ، أو - مدن الملح بخاصة - وذلك مهما تغيرت أماكن سكنهم، وقد يؤدي الانتقال من هذه المنطقة إلى مكان آخر، إلى تغيّر في نفسياتهم وسلوكهم ، فيولّد لديهم شعوراً ضيقاً ، وإن تشابه الزمان بين المكانين -، وقد عزا الكاتب الحالة النفسية الكئيبة التي أصابت المرافقين للسلطان ، إلى ليالي بادن بادن ، إذ أن الظلمة قوية ، والليالي تمتلئ بالرعود والأمطار ، لذلك يتملك الإنسان الخوف ، ويشعر أن جميع الناس أعداؤه ، فيغادره النوم ولا يعرف ماذا يفعل للتخلص من هذه المخاوف [٣]

وأخيراً ، نلاحظ أن الكاتب جعل أشخاصه هنا - في مدن الملح - يتمتعون بصلابة فيها عناصر استمرارهم وقدرتهم على المقاومة ، فنراه « يندرج بشخوصه الروائية ، ليضعهم في بوتقة الاستهلاك والبحث القسري ، عن الثراء في وادي العيون والحدرة وحران ... وغيرها ، وبتعبير آخر ، يتدرج منيف بعالمه الروائي من

---

(١) التيه ، ص ١٨٧

(٢) الآخدود ، ١٨٤

(٣) المنبت ، ص ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حياة الاستقرار المعيشية والنفسية ، إلى اللهاث عن عالم آخرا إن لم يحوّل الإنسان إلى (رقم) في هذه المنطقة الخليجية [١] .

وبذلك تحوّل الإنسان البدوي من شخص فاعل يؤثر في الحياة بجميع نواحيها ، إلى إنسان استهلاكي ، يلهث من أجل الحصول على لقمة العيش ، مما أدى إلى وجود صراع طبقي ، فظهر عندنا من يملكون ومن لا يملكون .

مما تقدم نرى أن الكاتب حاول من خلال الشخصيات مجتمعة ، أن يبين طبيعة المجتمعات العربية ، ولا سيما النفطية منها ، ومدى ارتباطها بالمكان واعتمادها عليه ، فبيّن التحوّلات الظاهرية التي أصابت الإنسان في تطور علاقته بالمكان إذ بدأ يواكب حركة التغير المدمرة ، من غير أن يدرك أبعادها ، أو أن يمهد لها في الأغلب .

---

(١) عبد الإله الرحيل ، قراءة في مدن الملح لعبد الرحمن ، منيف ، المعرفة السورية ، ع٢٧٥ ، كانون ثاني ، يناير ، ١٩٨٥م ، ص ١٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : علاقة المكان بالزمان

أ - زمن البداوة

ب - زمن النفط

جـ - جدلية الزمان والحدث في التأثير في المكان

د - المكان والتغير

* الناحية الشكلية

* الناحية الاجتماعية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : علاقة الزمان بالمكان :-

اهتم رواد النقد الحديث بالزمان ، وعدّوه جزءاً أساسيا من أجزاء الفن القصصي ، كما عدوه « المحور الأساسي الذي لا يوجد قص بدونه ، فلو انتفت الزمانية ، لانتفى القص »[١] .

ويعد الزمان الوجه الآخر للمكان ، إذ يمثّل المكان الخلفية التي تقع فيها الأحداث أما الزمان فيتمثل في الأحداث نفسها ، وقد تظهر العلاقة واضحة بين المكان والزمان ، ففي حين يمثل الزمان الأحداث التي تقع ، يقوم المكان باحتوائها ومصاحبتها ، إلاّ أن هناك اختلافاً بين طريقة إدراك المكان وإدراك الزمان ، ففي حين يكون إدراك المكان حسياً يكون إدراك الزمان نفسياً [٢] .

وقد تكون هناك علاقة عدائية ما بين المكان والزمان ، وذلك بسبب ديمومة الزمان ، الذي يطمح دائماً إلى تغيير المكان ، بينما يقاوم المكان هذا التغيير ، محاولاً الحفاظ على ملامحه القديمة [٣] ، وبناءً على هذه العلاقات فقد ورد غير تعريف يحدد مفهومي المكان والزمان ، فالزمان هو التاريخ ، والعمر ،وهو مدمر الحب ومغيّر الطبيعة وقد يختلف معياره من شخص الى آخر [٤] ، كما أنه «شرط للعالم الظاهري ، حركة ممزوجة ومرتبطة بوجود الأجسام في الفضاء وتنقلها فيه [٥] ، لذلك فهو أعم وأشمل من المكان ، بسبب علاقته بالعالم الداخلي للانطباعات والانفعالات والأفكار التي لا يمكن أن نضفي عليها نظاماً مكانياً ، والزمان كذلك معطى بصورة أكثر مباشرة ، وأكثر حضوراً من المكان ،

---

(١) الحداثة والتجسيد ، صبري حافظ ، فصول ، ع٤ ، مج ٢ ، ١٩٨٤ . ص٦٧

(٢) بناء الرواية . سيزا قاسم ، ص ٧٦.

(٣) الحداثة والتجسيد ، صبري حافظ ، ع٤ ، مج ٢، ١٩٨٤، ص ٦٧

(٤) لحظة الأبدية ، « دراسة الزمان في أدب القرن العشرين » ، سمير الحاج شاهين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠ . ، ص ٥٦

(٥) نفسه ، ص ١٩٥ -١٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو من أي مفهوم آخر كالسببية والجوهر »[١] .

إلا أن ما يهمنا هنا ، هو الزمان في الأدب ، وقد عُرِّف الزمان الأدبي على أنه الزمان الإنساني ، أي هو حصيلة الخبرات التي كوّنها الإنسان من نسيج الحياة الإنسانية ، وتعريفه هنا يكون « خاص ، شخصي ، ذاتي ، أو كما يقال غالباً - نفسي ، وتعني هذه الألفاظ ، أننا نفكر بالزمن الذي نخبره بصورة حضورية مباشرة» [٢] .

ولو نظرنا إلى رواية مدن الملح ، نرى أنها مبنية على أساس التمازج بين المكان والزمان ، فكان الحدث الروائي وسيلة لتأريخ الزمان في الرواية ، كما كان المكان « وسيلة محتوية على تاريخية الحدث »[٣] وهذا ما سنوضحه فيما بعد .

أما الرواية بمجملها العام ، فقد كانت رواية تاريخية ، تناولت الواقع العربي إبان الخمسينات من هذا القرن ، وقد اصطبغت الرواية بالصبغة التاريخية نظراً «لأنها قدمت تاريخاً سابقاً ملموساً للحاضر ، وقد صورت تطور الناس عبر أزمان الماضي حتى الحاضر» [٤] ، إذ استطاع الكاتب ببراعته أن يؤرخ لمرحلتين زمنيتين متناقضتين ، قُلبت خلالهما الموازين البيئية والاجتماعية لهذه المنطقة ، فعبّر عن طبيعة المجتمعات العربية ، - ولا سيما النفطية منها - وقد نجح في تصوير التطور المدمر الذي أصاب هذه الشعوب من غير أن يرافقه تطور في الناحية الاجتماعية والثقافية والسياسية ، فكانت الرواية جولة كبيرة في الزمان والمكان العربيين ، خلال مرحلة تاريخية معينة ، إذ استطاعت أن « ترصد

---

(١) الزمن في الأدب : ميرهوف ، هانز ،سجل العرب ت : د. أسعد رزوق ، مراجعة : العوض الوكيل ، مؤسسة مسجل العرب ، أكتوبر ، ١٩٧٢ ،ص ٧

(٢) نفسه ، ص ١٠ -١١

(٣) الرواية والمكان ، الموسوعة الصغيرة (١٩٥) ، ياسين النصير ، ص١٧

(٤) الرواية التاريخية ، جورج لوكاش ، ت : د. صالح جواد الكاظم ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨ ص ٤٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- وبدقة - التحولات الموجعة حقا في مرحلة البداوة البسيطة إلى مرحلة النفط ، لكنما المرحلتين ليستا مجرد اسمين نكتبهما وننتهي ، فكل مرحلة لها علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة عن الأخرى اختلافاً موجعاً، على الرغم من أن مرحلة - الانتقال - نفسها قصيرة ، لا تكاد تذكر في عمر الشعوب» [١] ولتوضيح ذلك لا بد من الوقوف عند مرحلتين زمنيتين تعبران عن التحول طفرة من البداوة إلى الانحلال وهما : -

أ- زمن البداوة :-

أرّخ الكاتب لمنطقة شبه الجزيرة العربية ، منذ كانت عبارة عن مناطق متفرقة إلى أن جاء البريطانيون ، ولزموا خريبط الأمراء الصغار ، وحماية طرق القوافل ، وقد بين لنا الكاتب من خلال ذلك الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتلك البيئة الصحراوية في تلك المرحلة .

فهذه المنطقة كانت مركزاً للقوافل ، وأهلها يعيشون حياة هادئة ، معتمدين على الزمن في حياتهم ، فإذا نزل المطر ، ولم تأت الرياح الصفراء ، استطاعوا تأمين رزقهم لمدة عام ، وإذا كان عكس ذلك ، فيخرج أبناؤهم للعمل في المدن المجاورة ويبقى الأهل منشدين إلى هذه المنطقة بانتظار أبنائهم [٢] .

ويبين لنا الكاتب الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة بين الناس خلال هذه الفترة ، فنتيجة للبساطة التي كان يتميز بها أهل الوادي ، سيطرت المودة على الطابع العام لعلاقاتهم بعضهم ببعض ، فنراهم يتكاثفون حول بعضهم في السراء والضراء ، فكثيراً ما كانت تصطنع المناسبات في أيام الجفاف وذلك لكي يُذبح جمل ويأكل الوادي كله ، [٣] أما في أيام الأعراس نراهم يتكاثفون ويتلاحمون، لتعم الفرحة جميع أنحاء الوادي . لذا كانت علاقاتهم قائمة على المحبة

---

(١) في رواية مدن الملح ، يوسف ضمرة ، أفكار ، ع ٧٥ ، ١٩٨٥ و ص ١٤٣

(٢) التيه ، ص ١٨

(٣) نفسه ، ص ١٤-١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعطف .

ونتيجة لبساطة الحياة التي يعيشها الوادي ، فقد امتاز تفكير أهله بالبساطة والسذاجة أيضاً ، فكانوا يعتمدون على الزمن لتأريخ الأحداث وتحديد الوقائع ، ومثال ذلك تحديد سنة ولادة مقبل ، إذ كانت خالته وسمة تقول ، أنه ولد سنة الجراد ، وتقول سارة أنه ولد سنة فاضت الغدران ، وما تتحدث عنه وسمة كان قبل هذه السنة بثلاث سنوات ، أما الخالة ودعة ـ خالة الوادي ـ تقول أنه أكبر من عنود بثماني أو تسع سنوات ، لأن مقبل بعد حليمة ، التي ماتت وعمرها سنة واحدة ، وبين حليمة وعنود بطنان ، ولذلك فمقبل ولد سنة « الحرب العمومي لأن زوجها سجن أيام تلك الحرب [١] »

إضافة إلى أن بساطة البدو تتمثل في الطريقة البدائية التي كانوا يعتمدونها في علاجهم ، دون إيمانهم بالعلاج الحديث ، فكانوا يعتمدون على أعشاب مفضي الجدعان [٢] ، الطبيب الوحيد في تلك الفترة .

إلاّ أن هذا الهدوء وهذه البساطة اللذيْن كان يتمتع بهما أهل الوادي ، كانت تتخللهما نزاعات بين الأمراء المائة الموجودين في الصحراء ، وبقيت كذلك إلى أن جاءت بريطانيا وعيّنت خريبط - الابن الثاني لمرخان بن هديب - أميراً على هؤلاء ، لكنه لم يقنع بذلك وبقي يمتد بإمارته شيئاً فشيئاً ، حتى شملت معظم المدى الصحراوي ، وأعلن نفسه بعد ذلك سلطاناً لموران [٣] ولم يكتف بذلك ، فقرر أن يكون له قبيلة خاصة به ، حتى يُحكم سيطرته على جميع المناطق ، فراح يتزوج من كل منطقة امرأة ، وجمع الأموال لتجهيز الحملات ، وقد عايشنا سلسلة من المعارك التي حصلت في تلك الفترة ، إضافة إلى المجازر التي ارتُكبت بحق

---

(١) التيه ، ص ٢٤ - ٢٦

(٢) نفسه ، ص ١٥٥ -١٥٦

(٣) تقاسيم الليل والنهار ، ص ١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناس الذين تعرضوا لتلك المعارك ، فكانت مجزرة « السمحة »[١] ومعركة «الرحيبة» [٢] من أهم المعارك التي خاضها السلطان ، والتي كان لها الأثر الكبير في تركيز نفوذه .

ومع أن خريبط أحكم سيطرته على معظم المناطق المحيطة بالصحراء ، إلاّ أنه لم يستطع أن يحرر رقبته من النفوذ البريطاني ، الذي كان يسيّر له أموره ، وظل تحت سيطرتهم ، حتى أحكمت بريطانيا نفوذها على المنطقة ، فمنحت السلطان حق التنقيب عن النفط وبيعه لشركة أمريكية ، وبذلك استطاعت بريطانيا تثبيت قدمها في هذه المنطقة ، ليكون هذا الحدث سبباً في انتهاء هذه المرحلة ، وبدء مرحلة جديدة في المنطقة .

ب- زمن النفط :-

استطاعت هذه المرحلة ، قطع المجتمع البدوي إلى نصفين متضادين ، إذ انتقل الإنسان نقلة مفاجئة من اعتماده على الزمن إلى الاعتماد على الحضارة ، وكل الوسائل التي جاءت إلى هذه المنطقة لإحداث التغير من غير التمهيد له .

فكان التغير تغيراً سلبياً ، يكشف عن عجز الإنسان العربي في هذه المنطقة ، وفي تلك المرحلة بالذات ،هذا الإنسان الذي بهره التغير المفاجئ ، فواكب حضارته دون أن يدرك أبعاده ،وانتقل يصارع الحياة الجديدة .

وبمجيء الحملة وترحيل أهل الوادي ، ظهرت عندنا أماكن جديدة ، تتصارعها أحداث متنوعة ، وكل حدث جديد يساهم في بناء مكان جديد ، فتعددت الأحداث ، وبالتالي تعددت الأمكنة ، فظهرت روضة المشتى ، والحدرة، وحران ، وموران ، وعن طريق تطور الأحداث في هذه المناطق صوّر لنا الكاتب حقيقة الصراع الذي حدث فيها ، نتيجة لعدم تمكن أهلها من التأقلم مع

---

(١) تقاسيم الليل والنهار ، ص ١٥٠

(٢) الاخدود ، ص ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الظروف الجديدة ، إذ قامت في هذه المنطقة أبنية من أنماط وأشكال لا حصر لها ، وأصبح يتكالب عليها بشرٌ من مختلف الجنسيات ، فوصل إليها عبد العزيز الغامدي، وسعيد الأسطه ، وأقاما شركة الحصان لمواد البناء ، وبذلك تطورت المدينة ، وقامت المنافسة بين أهلها في بناء القصور .

وبتطور الأحداث ، انفتحت هذه المنطقة على العالم ، وبدأت تدخل إليها الوسائل الحضارية الجديدة ، التي استطاعت السيطرة والتحكم في عقول البشر ، وقد ترتب على ذلك اختلال في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فالشيوخ الذين كانوا يسيطرون على الأمور في الفترة السابقة ، أصبحوا الآن لا قيمة لهم ، وتفككت الروابط الاجتماعية نتيجة للهاث وراء لقمة العيش ، فسادت المصلحة الشخصية على المصلحة العامة وعمت الفوضى جميع أنحاء البلاد .

وبذلك انفتحت هذه المنطقة على العالم ، فسيطرت الدول الأجنبية عليها ، بحجة مساعدتها اقتصادياً ، وانتقل الناس من اعتمادهم على منتجاتهم المحلية إلى الاعتماد على ما يأتيهم من الخارج ، وقد صور لنا الكاتب هذه الحياة بأدق تفصيلاتها ، ليبين الحالة التي وصل إليها هذا المجتمع بعد هذه المرحلة .

ولن أتوسع هنا في ذكر تفصيلات المرحلة ، وذلك منعاً للتكرار ، لأنني سأعالج الظواهر الحضارية التي طرأت على المنطقة خلال مرحلة النفط ، فيما بعد .

جـ - جدلية الزمان والحدث في التأثير في المكان :-

لقد اعتمد الكاتب على الحدث في روايته اعتماداً كبيراً ، ووظف المكان ليكون وسيلة لاحتوائه ، كما أنه استخدم أسلوب الزمن المتقطع لرصد تلك الأحداث ، فكانت الأحداث متباعدة تقريباً ، و ذلك نظراً لتوالدها فيما بينها ، فكل حدث جديد تسبب عن حدث قديم ، وجميع هذه الأحداث سيطر عليها الشكل السينمائي ، إذ تمت معالجة غير حدث في وقت واحد ، وفي مكان واحد ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأيضا معالجة حدث واحد في غير مكان ، وهذا التنوع « منح الأحداث حرية الحركة في الزمان وقدرة هائلة على الاندفاع الافقي في اللحظة نفسها »، [١] ومع ذلك جاءت تلك الأحداث متزامنة مترابطة بعضها ببعض لتظهر في النهاية، وكأنها تأريخ كبير لمنطقة مدن الملح ، فهي ليست « مجموعة من الأحداث المتجاورة المتشابهة ، التي لا ترابط بين أجزائها ، بحيث إذا سقط الجزء لا ينفرط عقد الكل ، وإنما هو حدث كل ، يشكل كائناً عضوياً متازراً ، بحيث لو حذف منه جزء وتغير موقعه في النسق التعبيري ، اختل الكل [٢] »

لذلك فإننا نرى أن الحدث الواحد تمتد خيوطه الأولى إلى الحدث الرئيسي ، فلا يستطيع أن يستمر دون الاعتماد عليه ، فيكون الحدث الرئيسي هو الجزء الأساسي والأهم في بناء الرواية ، وقد يكون مجئ الحملة إلى وادي العيون ، وبدء التنقيب عن النفط ، هو الحدث الرئيسي في الرواية ، وعلى أساسه بدأت الرواية في تكوين عالمها الداخلي .

وقد اتخذ الكاتب من الحدث أداة لتأريخ بدايات المراحل الاجتماعية أو نهاياتها ، لذلك نراه عبّر عن هذه الأحداث عبر الثالوث الزمني ، الماضي والحاضر والمستقبل ، فبدأ بالتأريخ لهذه المنطقة كلها من عصر ما قبل النفط ، إلى عصر ما بعد النفط ، وما فيه من صخب وتدمير ونشوء مدن بكاملها وإقامة شركات هائلة ، إلى أن وصل إلى التنبؤ الضمني لمستقبل هذه البلاد ، « موران القائمة الآن ، يمكن أن تنتقل أو تزول بعد عدد من السنين ، وهذا العدد ، إذا تفاءلت أو تشاءمت لا يتجاوز الثلاثين سنة ، لأن كل شيء ليس في مكانه ، الأبنية والبشر ، إضافة إلى الرغبة الإنسانية المجردة » [٣] ، وختم الجزء الأول من روايته بعبارة « تفاءلوا بالخير ... لكن لا أحد يعلم بالغيب [٤] »

وقد اتخذ الكاتب من حدث وصول « باخرة الشيطان » إلى حران وسيلة

---

(١) مدن الملح رواية متعددة المحاور ، شاكر الأنباري .، الناقد ، ع ٤٢ ، كانون الثاني ، يناير ، ١٩٩١م ، ص ١٣٥

٢) بناء الرواية ، دراسة في الرواية المصرية - عبد الفتاح عثمان ، ص ٤٤

(٣) بادية الظلمات ، ص ٢٨٣ (٤) التيه ، ص ٥٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لتحديد مرحلة اجتماعية معينة ، فحران ، تلك البلدة المنسية ، وسط الصحراء ، لا أحد يعرف بداية تاريخه ، متى قامت ، وكيف قامت ؟ حتى أبناءها ، لا يتذكرونها قبل هذا اليوم ، بدأت تعود إلى الأذهان ، وقد كان الوصول الأمريكان إليها أثر في ازدياد أهميتها ، إذ اختيرت لتكون ميناء لمراكب الشركة الأميريكية ، وبذلك أصبحت ترسو في مينائها مراكب مختلفة ، إلاّ أن ذلك يعدّ أمراً عادياً ، حتى جاءت « باخرة الشيطان » ، بأنوارها المتلألئة ، ونسائها الجميلات ، وكان لوصولها أثر بليغ في وجدان أهل البلد ، فالذين لا يتذكرون حران قبل اليوم ، أصبحوا يذكرونها منذ اليوم الذي وصلت به تلك الباخرة ، إنه اليوم الذي يؤرخ لحران ، متى قامت ، وكيف قامت ،... حتى أبناء حران ذاتها الذين كانوا في هذا المكان منذ وقت بعيد ...، إن هؤلاء أنفسهم يتذكرون يوم وصول تلك الباخرة ... حتى ليكاد يصبح التاريخ الوحيد في ذاكرتهم [١] ».

وبوصول الباخرة المحملة بالبشر والآليات ، تطورت حران ، وأصبح يؤمها الغرباء من مختلف الجنسيات ، فشقت الشوارع فيها ، وأقيمت الأبنية وبذلك لم يعد لحران أية صلة بالماضي ، إذ أصبحت ميناءً ومقراً للشركة الأمريكية ، وبعد أن كانت القوافل والأخبار تأتي من وادي العيون وعجرة وروضة المشتى ، أصبحت الأنظار الآن تتجه نحو البحر ، أما البادية ، فلا يأتي منها أحد إلا نادراً ، والناس الذين اعتادوا انتظار القوافل في مثل هذا الوقت ، تخلواْ عن ذلك لأنها أصبحت تأتي من جميع الجهات [٢]

وقد لمس أهل حران هذا الاختلاف الكبير في حياتهم ، وعدّوا مجيء هذه الباخرة ، سببا رئيسا في بداية عصر جديد في حران [٣] ، إذ قام هيكل مدينة جديدة ، لا يمت لتلك التي كانت بأية صلة ، وبذلك ، انتهت مرحلة قديمة من مراحل حران ، لتنتقل إلى مرحلة جديدة تمتاز بالفوضى والاضطراب .

---

(١) التيه ، ص ٢٠٤

(٢) نفسه ، ٤٤٥

(٣) نفسه ، ص ٢١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان لوصول سيارات حسن رضائي الإنجليزية الصنع ، أثر كبير في نقل المنطقة من مرحلة إلى أخرى . فهذه السيارات تختلف تماماً عن التي اعتاد عليها أهل حران ، كما تطورت نتيجة لذلك طرق المواصلات ، فبعد أن كانت هناك شاحنتان تابعتان لمكتب سفريات البادية تعملان على الخط، وقد تستغرق هاتان الشاحنتان ثلاثة أيام في الوصول ، أصبحت الشاحنة تصل عصر اليوم نفسه، كما حلت الأختام محل القطع المعدنية التي كانت تعطى للمسافرين [١] ، وبعد إكمال تعبيد الطرق ، تقرر فتح مكتب سفريات في حران ، كما تقرر زيادة عدد السيارات التي تعمل على الخط ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر، وصلت إلى حران سبع سيارات جديدة يمتلكها حسن رضائي ، وبدأت تسيطر على الشارع . وبقيت هذه السيارات كذلك حتى جاء النقيب « ومثلما سرق رضائى الركاب والحمولة من آكوب وراجي ، سرق النقيب الركاب من رضائي [٢] .

فهنا نرى أن وصول السيارات إلى هذه المنطقة ، أدى إلى دخولها في مرحلة حرجة وجديدة ، إذ حلّت القطع الفضية محل الإبل للتداول بها ، فتخلى الناس عن إبلهم ، وبعد أن كان الإنسان يقدّر بسنّه وحكمته ورجاحة عقله أولاً ، ثم بعدد الإبل الموجودة عنده ، أصبح يقدّر بعدد السيارات التي يملكها ، وبعد أن أفزعت السيارات الموجودة في معسكر الأمريكان الأمير وحاشيته عندما رأوها لأول مرة، أصبحت الآن شعار المرحلة [٣] .

وهنا نلمس الفرق الواضح بين المرحلة السابقة والمرحلة الجديدة ، إذ تحمل هذه المرحلة في تجلياتها جميع مظاهر المدينة الحديثة، وبذلك كان هذا الحدث أداة لتأريخ مرحلة جديدة من مراحل التطور في حران ، بكل ما تحمل من مراحل الصراع الاجتماعي الذي كان سائداً في تلك الفترة ، وقد أطلق عليه الكاتب « صراع الحيتان » [١]

---

(١) التيه ، ص ٤٥٩-٤٦٠

(٢) نفسه ، ص ٤٦٢

(٣) نفسه ، ص ٤٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اتخذ الكاتب من حدث وصول الدباسي إلى حران ،وسيلة لتجسيد الصراع الطبقي في هذه المنطقة ، فبمجيئه بدأت مرحلة جديدة في حران ، إذ كان الناس يرون فيه رجلاً قوياً ومحبوباً ، فبدأ يجول ويصول ، ليقف في وجه إبن الراشد - السمسار الأمريكي - الذي كان يمقته جميع الناس ، لأنه يجبرهم على بيع أراضيهم للشركة الأمريكية ، إلاّ أن الدبّاسي طلب من أهالي حران أن يتمسكوا بأراضيهم ، ولا يبيعوها مهما حدث ، فلاقى تجاوباً كبيراً منهم،وهنا بدأت الخصومة تأخذ أوجها بين الخصمين ، حتى انتهت بموت ابن الراشد [٢] ، وبذلك نرى أن مجيء الدباسي إلى حران وتفوقه على خصمه ابن الراشد ، خلق في حران مرحلة اجتماعية جديدة ، مختلفة عن التي كانت في عهد ابن الراشد ، فوقف الناس جميعا للتصدي للقوى المستبدة التي رحتلهم عن مكانهم وسلبتهم أراضيهم.

ومثلما كان وصول الدباسي إلى حران بداية لمرحلة جديدة ، كذلك كان وصول المحملجي - الطبيب الشامي - الذي وفد إلى حران في بعثة الحج ، وبدأ يحتل مراكز كبيرة في المنطقة ، وقد خلق مجيئه إلى حران مرحلة جديدة من مراحلها ، فهؤلاء البدو لم يعتادوا وجود طبيب بينهم ، لذلك نراهم فروا من وجهه في البداية ، والتفو حول مفضي الجدعان - الطبيب الشعبي في حران - إلاّ أن ذلك لم يطل كثيراً ، وانتقلت البلدة من مرحلة الاعتماد على الأعشاب والكي ، أي مرحلة - مفضي الجدعان - إلى مرحلة الاعتماد على أدوات طبية حديثة ، فافتتح الدكتور المحملجي أول عيادة في تاريخ حران ، وبدأ يعالج المرضى، ويعطيهم أدوية مغلفة بأجور لا يمكن للعقل أن يصدقها ، ثم بعد ذلك تم افتتاح مشفى الشفاء وفق طراز معماري عظيم [٣]

وبذلك نلاحظ أن الحدث أسهم إسهاماً كبيراً في تحديد المراحل التي مرّت بها المنطقة ، كما بيّن لنا الكاتب أثر هذه الأحداث في تغيير المكان تغييراً جذرياً .

---

(١) التبه ، ص ٤٦٣

(٢) نفسه ، ص ٢٤٤

(٣) التبه ، ص ٥١٤ - ٥١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د - المكان والتغير :-

* الناحية الشكلية :-

ليس الزمان فقط هو الذي يظهر اختلاف الأمكنة ، بل يظهر تأثير الزمان في المكان من خلال فعل الإنسان عليه .

فوادي العيون كان هادئاً ، ساكناً ، وسط الصحراء ، يعيش فيه أهله وفق نمط حياة معينة ، اعتادوا عليها منذ نشأتهم ، إلى أن أتت الحملة إلى الوادي ، وابتدأت باقتلاع الأشجار ، كما هدمت البيوت القديمة ، وبنت مكانها بيوتاً خشبية ، وبذلك تم ترحيل أهل الوادي [١]

وبترحيلهم ، بدأت الأحداث تتصارع على هذه المنطقة ، وبدأ الزمان يلعب دوره في المكان، وقد استطاع الكاتب أن يرسم لنا صورة وصفية ، بين من خلالها جميع مظاهر التغيرالتي طرأت على المكان ، وذلك بأسلوب سردي يعكس لنا نفسية الشخصيات التي يتحدث من خلالها ، وموقفها من هذا المكان الجديد ، ففواز ابن متعب الهذال ، الذي عاد للعمل في الشركة الأمريكية ، شعر بأنه لم تعد له صلة بالوادي الذي تركه ، إذ لم يبق فيه شيء من الأشياء القديمة ، لذا قرر العودة من حيث أتى لأن هذا المكان أصبح غريباً بالنسبة له [٢]

أما حران ، تلك البلدة المنسية ، فلم تتوقف البواخر يوماً عن الوصول إليها ، وقد رافق وصولها ، جلب مجموعات كبيرة من البشر للعمل في صناعة النفط ، مما زاد الشرخ في مظاهر الحياة الاجتماعية ، فظهرت بعض التصرفات التي لا تتمشى وعادات أهل البلد الأصليين ، إذ كان هؤلاء الأجانب يظهرون عراة ، وهذه ظاهرة غير مألوفة في هذا المكان ، ومع كل إشراقة شمس ،يزداد عدد الرجال الذين لا يعرف من أين أتو أو ماذا سيعملون ، إذ كانوا يتدفقون كالجراد ، وخلال

---

(١) التيه ، ص ٦٩

(٢) نفسه ، ص ١٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يوم واحد ترتب إقامتهم وسكنهم « كان الجميع يتراكضون مثل القطط المذعورة من مكان إلى آخر ، وهم عراة تقريباً ، إذ ما عدا السراويل القصيرة والقبعات البيضاء ، كانوا لا يضعون شيئاً على أجسامهم أغلب الوقت [١] »

وبازدياد وصول البشر من مختلف الجنسيات ، عمت الفوضى أرجاء المعسكر الأمريكي ، مما اضطرهم إلى نصب الخيام على أطراف المعسكر إلاّ أن ذلك لم يحل مشكلة « وأصبح الناس فيها من الكثرة والاضطراب إلى درجة أن كل واحد يسأل وكل واحد يجيب ، ولكن لا أحد يفهم ، ولا أحد يسمع [٢]

ولم يقف التغير في عمران البلد إلى هذا الحد ، بل عمدت الشركة إلى توسيع ميناء حران كي يتمكن من استيعاب المزيد من البواخر التي تقوم بنقل البشر والبضائع إلى حران ، كما شقت ثلاثة شوارع تربط الميناء بحران العرب وحران الأمريكان ، وبذلك تغيرت حران مرة اخرى [٣] .

فهنا نلاحظ أن الحركة والفوضى سيطرت على هذه الصور ، وذلك ناتج عن سرعة الزمن وشدة تأثيره في المكان ، التي أدت إلى اندثار المكان بصورته القديمة وقيام صورة جديدة له .

وقد لجأ الكاتب إلى الأسلوب السردي في وصف هذه الأماكن ، فبدا وكأنه يؤرخ لهذه المدن منذ قيامها ، حتى أصبحت بهذه الصورة التي هي عليها الآن ، ولتوضيح ذلك ، عمد الكاتب إلى أسلوب الزمن المتقطع الذي تتخلله الأحداث البسيطة ، فيبدو المشهد الوصفي وكأنه غير مكتمل ، إلاّ أن القارئ المتأني ، يلاحظ أن هذه الأحداث البسيطة ، ليست إلاّ أحداثاً مكملة للمشهد ، فظهرت عندنا الأماكن في النهاية وكأنها وحدة متكاملة لمنظر طبيعي ، ساعد الزمان في

---

(١) التيه ، ١٩٦ -١٩٧

(٢) نفسه ، ١٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تغييرها .

وبما أن الكاتب لجأ إلى التدرج التاريخي في وصف نشأة المدن وتطورها ، فسأعالج أثر الزمان في تغيير شكل المكان من هذا المنطلق :-

فحران التي ورد ذكرها قبل قليل ، كانت في البداية عبارة عن مجموعة من البيوت على التلال ، تشرف على البحر ، وعند وصول الأمريكان مع آلاتهم الجهنمية ، هُدمت البيوت ، ورحل أهل حران إلى التلال الغربية ، وفي أقل من شهر ، بدأت تنشأ مدينتان : حران العرب ، وحران الأمريكان ، فأصبحت هناك الشوارع العريضة المتصالبة ، وأخرى ضيقة ، بيوت صغيرة ، وأخرى كبيرة ، ويوماً بعد آخر ومن بقايا الصناديق الخشبية الكبيرة وألواح الزنك ، إضافة إلى مجموعة من الحجارة غير المنتظمة ، أقيمت الدكاكين الأولى في حران العرب ، والدكاكين التي قامت في الأيام الأولى بدأت تتضاعف .[١]

أما الخيام السبع التي أقيمت لتكون منازل للعمال في البداية ، أصبحت الآن مركزاً لاستقبال عمال جدد ، وأقيم للعمال القدماء بركسات بين حران العرب وحران الأمريكان في الجهة الغربية مقابل البحر ، ثم أخذت هذه المدينة التي بدأت بثلاثة بركسات تتسع وتكبر [٢]

ويتدرج الكاتب بعد ذلك في وصف التطور في حران ، ليبين لنا أن عصرا جديداً سيبدأ في هذا المكان ، وتتغير الحياة تبعاً لذلك ومن جميع جوانبها ، وهذا ما سنوضحه فيما بعد .

ونتيجة لهذا التطور السريع امتلأت حران بالبيوت ، وكان عامل الزمن يدفعها إلى الأمام لتجاريه وتستجيب لمتطلبات المرحلة الجديدة ، فيصبح الماضي

---

(١) التيه ، ص ٢٢٧

(٢) نفسه، ص ٢٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالنسبة لها شيئاً قابلاً للنسيان .

ففي البداية كانت الاحجار تركّب فوق بعضها ، وترتفع لتصبح بنايات عالية ، والشوارع تشق لتصبح مسالك للبشر والدواب والسيارات وكان هناك دار الإمارة التي أصبحت الآن سجن حران المركزي ، أما القيادة العامة التي كانت مقراً للعميل الأمريكي - جوهر - فقد تحولت إلى مخفر للشرطة، ومستشفى الشفاء تحول الى مستشفى الغرباء ، أما عيادة الدكتور المحملجي فأصبحت مصبغة الشرق للتنظيف على البخار ، ومكان مقهى الأصدقاء قامت عمارة البهلوان ، وأصبحت دار الأمير في الجهة الثانية من المدينة ،وبنى الأمريكيون مدينة جديدة إلى الشرق ، وهناك قامت أحياء التجار والأغنياء وكبار الموظفين ، والأحياء التي كانت على التلال الغربية ، والتي أطلق عليها في البداية حران العرب تحولت إلى أسواق تجارية بعد أن هدمت وأعيد بناؤها أكثر من مرة ، وأصبح معسكر العمال مستودعاً كبيراً للآلات والمعدات ، وفي جانب منه تراكمت بقايا السيارات والبراميل ، حتى الجامع دبّ إليه الهرم وأصبح قبيحاً أميل إلى السواد، كما أحاطت به مجموعة من الأبنية العالية وغطته طبقات من الدخان والغبار ، أما المقبرة فلم تبق مكانها ، وافتتحت مقبرة جديدة على طريق عجرة تم تسويرها بسور عال ، كما أصبح السوق مركزاً تتم فيه عمليات الشنق بعد أن كانت تتم في ساحة السلطان خزغل المطلة على الجامع الكبير [١].

مما تقدم ، نلاحظ أن جميع المظاهر كانت تكشف عن زمانين متناقضين ، الماضي بتخلفه وتأخره ، والحاضر بحضارته وتقدمه، فبدت حران وكأن هناك صراعاً زمانيا ومكانيا بين الطرفين ،إذ تظهر العلاقة العدائية بين الزمان والمكان ، فيتغلب الزمان على المكان ويغير جميع ملامحه القديمة ، ويعطيه ملامح أخرى جديدة لا تمت للقديمة بأية صلة .

---

(١) الأخدود ، ص ١٨٢ . ١٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذلك ما حصل أيضاً في موران ، ففي حين قام عنصر الزمان تدريجيا في تبيان حركة البلد في حران ، دارت عقارب الساعة مرة واحدة وإذا بموران قائمة .

فتلك الصحراء المنسية بدأت تتغير ، انتشرت الأبنية بجميع أشكالها في وسط المدينة وعلى أطرافها ، كما خصصت منطقة للقصور أطلق عليها إسم منطقة الغدير .

وهنا يظهر الصراع واضحاً بين الحاضر والماضي ، فقريباً من هذه المنطقة كانت بقايا البيوت والجدران والأشجار تبدو « وكأنها آثار عصور قديمة خلفتها هزة مفاجئة [١] »

وقد يختلف تأثير الزمان من منطقة لأخرى ، وذلك تبعاً لطريقة التعامل مع مظاهر التطور التي تحدث فيها ، ومدى تقبل الإنسان لها ، ففي حين كانت حران تعج بالفوضى والحركة بمرور الزمان ، فإن الحياة في موران مختلفة ، كل شيء يضاف إليها يضيف إلى الركام الموجود ركاماً جديداً ، حتى لتبدو موران كأكوام القمامة في هذا المدى الصحراوي [٢] ، وهذا إن دلّ على شئ ، فانما يدل على عدم قدرة أهل هذه المنطقة لمجاراة التطور .

ومع ذلك لم تمض سنوات حتى أصبحت موران مدينة عجيبة ، نتيجة لاختلاط الحضارتين العربية والأمريكية ، واستجلاب أهل موران أنماطاً حديثة للبناء من خلال سفرهم، إضافة إلى فتح فرع شركة الغزال لبناء الفيلات والقصور .

لذلك فإن موران الأولى لم يبق منها شيء ، فتغيرت تماماً ، ولم يعد لها صلة بالمدينة التي كانت لها من قبل ، فبدت هذه المنطقة، وكأن شخصاً يريد أن ينتقم منها ، فحمل معوله وبدأ يحطم دون رحمة ، كما أصبحت مدينة لا ترحم نفسها ولا ترحم ساكنيها ، مجموعة من الأنقاض تتزايد كل يوم، والناس يتطلعون حولهم

---

(١) الأخدود ، ص ٢٤٧

(٢) نفسه ، ص ٢٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بجيرة وتشف ، فالغريب الذي يصلها لأول مرة يدهش لما يراه أمامه [١]

وبسبب كل هذه التغيرات التي طرأت على المدينة ، فإنها لم تبق ملكهم وليس لهم حرية التصرف بها ، إذ أصبح في حران مخفراً للشرطة ، فتقوم الشرطة بالتجول في الشوارع وإيقاف المشاه واستجوابهم، وأحياناً يضطرون لزيارة المخفر قرب دار الإمارة ، ومن هناك تقوم الشرطة بتسفير من لا يعجبها إضافة الى السجن والضرب [٢] .

* الناحية الاجتماعية

لم يقتصر التغير على إحداث تغير في شكل المنطقة فقط ، بل تعدى ذلك ليصاحبه تغير في الناحية الاجتماعية .

ففي حران ، حيث كانت البركسات ، تجمع أشكالاً من البشر ، لا تجمع بينهم رابطة سوى أنهم عمال للأجنبي ، لذا بدت المدينة وكأنه لا أهل لها ، ولا أحد يتملكها ، فقد أمها البشر من مختلف الأجناس ، ودبت فيها الفوضى.

وكان هذا التغير سريعاً لدرجة أن الذي يزور حران - بعد فترة انقطاع - يعتقد أنه أخطأ الطريق ، الناس فيها بلا ملامح ، إنهم من كل الأجناس ولا جنس لهم ، لغاتهم مختلفة ، لهجاتهم ، ألوانهم، دياناتهم ، كل شيء يختلف عن الآخر، حتى الأموال فيها غير متشابهة ، ومع ذلك لا أحد غنيٌّ ، فالكل يلهث وراء المال لكنه لا يجده ،ونتيجة لهذه الفوضى فقد أصبحت « تشبه خلية النحل، وتشبه المقبرة ، حتى التحية فيها لا تشبه التحية في أي مكان آخر ، إذ ما يكاد الرجل يلقي السلام ، حتى يتفرّس في الوجوه التي تتطلع إليه، وقد امتلأ خوفاً في أن يقع شيء ما بين السلام ورد السلام [٣] »

---

(١) الأخدود ، ٢٤٨

(٢) نفسه ، ١٨٥

(٣) نفسه ، ١٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذه المظاهر الاجتماعية ، جديدة كليا بالنسبة للبلد ، وهؤلاء البشر جاءوا إلى المنطقة وغيروا فيها نتيجة لاختلاف عاداتهم وتقاليدهم .

ولم يقتصر التغير الاجتماعي على عادات هؤلاء الوافدين ، بل أثر ذلك في عادات أهل البلد الأصليين ، فساءت العلاقات الاجتماعية، وبدأت تسيطر عليها القسوة والتفكك ، فلا أحد يهتم بما يجري حوله ، والتعامل بين الناس أصبح حذراً ومحفوفاً بالمخاوف [١] .

وقد يتجسد ذلك من خلال معاملة أهل البلد لعبده محمد فران حران ، الذي كان في السابق يحضر لهم الخبز واللحوم المشوية والمعجنات ، فكانوا يحبونه ويقضون معظم أوقاتهم عنده ، ولكن ما أن جاءت باخرة الشيطان ، حتى اعتكف عبده محمد في فرنه ، فيقضي معظم وقته فيه ، يدندن طول النهار ، وينشغل بصورالنساء التي أتت بهن الباخرة، لذلك ساءت أحواله كثيراً ، فشغل الكثيرين ، إذ اتهموه بأنه يحب « الكيف » أي تعاطي المخدرات ، وبدلاً من أن يقفوا إلى جانبه ، كما عوّدتهم الحياة السابقة ، ابتعدوا عنه وأساءوا الظن فيه ، إلى أن أبعدتهم الحياة الجديدة، ولم يعد له ذكر [٢]

فعدم إحساس أهل حران بعبده محمد ومعاناته ،كان سببا من أسباب الواقع الاجتماعي الجديد ، الذي أدى إلى اندحار أخلاقهم وتفكك علاقاتهم الاجتماعية .

وهذا أيضاً ما حصل مع صالح الرشدان - حذّاء حران - فما أن نقل سوق الحلال بعد التغير ، حتى بدأ رحلته مع العذاب ، وتخلى عنه أصحاب الخيول . أما الذين كانوا لا يعترفون به من قبل ، أصبحوا الآن وفي ظل المرحلة الجديدة، أشد إنكاراً له ، فما أن يأتي حول اسطبلاتهم ، حتى يبعثوا من يطرده ، والذين كانوا ينتظرونه ساعات طويلة ليحذو لهم حيواناتهم ، فلم يعودا يكترثون

---

(١) التيه ، ٢٣٥

(٢)نفسه ، ص ٢٢٨-٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

به ، ولا ينظرون إليه إلاّ ليسخروا منه ، وقد ازدادت مواقفهم سوءاً حين رأوه يحمل طفله الصغير الميت ، فلم يشاركه أحدٍ في مصابه ، وقد فاق ذلك سوء ظنهم به ، حتي اتهموه بأن الذي يحمله سرقة سرقها وهرب بها [١]

فهذه المواقف تظهر لنا تفكك المجتمع بعد أن كان متكاتفاً ، ولعلها تكون أهم آثار التغير الذي غير في الأمكنة وطمس ملامحها ، وبالتالي غير في شخصية أفرادها وعلاقاتهم الاجتماعية .

ولم تقتصر آثار التغير في إحداث الفوضى وتفكيك العلاقات الاجتماعية ، بل تعدّت ذلك ليظهر عندنا الصراع الطبقي ، فبدأت المنافسة في بناء القصور ، وقد أضاف السلطان إلى ذلك هواية جمع الزوجات وتسكين كل زوجة في قصر جديد ، فجاراه الآخرون ، وكان الحكيم من أوائل الذين بنواالقصور ، وقد سخر منه الناس في البداية ، لكن ما لبث الآخرون وأن شاركوا في نفس اللعبة ، فبدل القصر بنوا ثلاثة، وبدل الطابق الواحد عدداً من الطوابق ، وبدل الشبابيك العريضة، واجهات زجاجية تمتد من الجدار إلى الجدار [٢] ، وبذلك ، تعددت الطبقات ،وأصبح هناك الغني الذي يجاري التطور من جميع جوانبه ، إلى جانب الفقير الذي يبحث عن لقمة عيشه فلا يجدها ، وقد وصف لنا الكاتب الحياة في هذه المنطقة بكلمة موجزة « تتقطع جذورها وتضطرب، تتغير، لكن لا أحد يعرف ماذا سيصير ».[٣]

مما تقدّم نرى أن الزمان أثر في المكان بطريقة ليس من السهل على الإنسان أن يصدقها ، إذ قامت أشياء على أشياء أخرى ، كما اختفت بعض الأشياء وظهرت الأخرى على أنقاضها ، فزمن الحروب والفتوح ولّى وانتهى ، وبدأت مرحلة جديدة ، هدفها إقامة بناء قوي للدولة ، كما بدأت الدول المتنافسة ، بتأمين موارد إضافية للمنطقة ، فوُقّعت إتفاقية النفط مع الولايات المتحدة ، وبانفتاح المنطقة على العالم [٤] ، كان لا بد من أن تُضم جميع المناطق لبعضها ، كي يتم تنظيمها

---

(١) الأخدود ، ص ٣٩٤.

(٢) نفسه ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(٣) التيه ، ٤٨٨

(٤) الأخدود ، ٢٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا دخلت المنطقة مرحلة جديدة فحلّ اسم الدولة الهديبية محل الحويزة والعوالي وموران ، وذلك نسبة إلى الجد الأكبر ،كما تم توحيد العملة .

وقد نرى سيطرة الفعل الماضي على أحداث الرواية ولغتها بشكل عام ، إلاّ أن هذا لا يعني أن الحدث وقع وانتهى ، لأن « مفهوم الزمن بالنسبة للروائي قد يكون مختلفاً عن زمن الناس الآخرين ، الماضي ليس ما وقع من قبل فقط ، إنه ما يملك فاعليه مستمرة ، ما يزال في حالة كينونة، موجود ويتفاعل في ماحوله»[١] لذلك فإن أحداث الرواية التي جاءت بلغة الماضي ، ما زالت تعمل في الزمن الحاضر ، وستبقى في المستقبل ، إذا ما تم تدارك العوامل المؤدية إلى دمار هذه المناطق وضياع أهلها ، ولذلك ، جاءت هذه الرواية ، قراءة في أفكار المثقفين ونظرتهم لمثل هذه المجتمعات ، وتحريضاً ضمنيا منهم، لما يجب عمله لتدارك الزمن السريع الذي سيؤدي إلى تلاشي هذه المجتمعات ، إذا ما تم إنقاذها وتحويلها من مجتمعات مستهلكة إلى مجتمعات منتجة مستقرة ، وبهذا يكون «موضوع الرواية ليس موضوعاً تاريخياً واقعياً ، كما هو متعارف ، وإنما هو التاريخ المغيب : أي التاريخ الذي يراد له أن ينسى وأن يهمل ، ولذلك كان لا بد من العودة إلى فترات تاريخية بعيدة نسبياً ، وإلى أماكن طبيعية ، أي إلى المسرح الحقيقي الذي جرت عليه الأحداث ، ومحاولة قراءة المجتمع خلال ما يقارب نصف القرن »[٢]

وأخيراً ، فإننا نقول : إن النفط أحدث تحولات قاسية في الواقع الاجتماعي والتاريخي لدى المدن النفطية ، فأدى بها إلى الانتقال من مجتمع بداوة ورعي وتنقل ، إلى مجتمع علاقات استهلاكية يعيش على هامش الحضارة، كما غيّر في ملامح شخصية المكان ، وأحدث انقساماً في مجتمعاته ، فأصبحت مدنه دون ملامح ، ودون نمط حضاري واجتماعي معين ، فزالت معظم معالمه القديمة ، وحلّت محلها معالم جديدة . بالإضافة إلى أن هذا المكان الذي صاغ أهله بسمات مميزة ، وألف بينهم ، فقد فاعليته حين دخله التغير ، فدخلت له علاقات اجتماعية لم يعتدها البشر من قبل مما كان لهاأثر سلبي كبير على علاقات الناس الأصليين .

---

(١) الكاتب والمنفى ، عبد الرحمن منيف ، ٣٣٦

(٢) نفسه ، ص ٣٧٦-٣٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا: المكان الرمز والأسطورة

أ- المكان والرمز

ب- المكان الرمز والأسطورة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن اللجوء إلى استخدام الرمز للتعبير عمّا يجول في خاطر الكاتب ، يكون نتيجة لوجود أمور غامضة ، لا يستطيع الكاتب التصريح بها لظروف خاصة به ، تكون في أغلب الأحيان تابعة لظروف سياسية ، وبذلك يتاح للدارس التعمق في النص الأدبي ودراسة أبعاده المتعددة ، نظراً لأهمية الرمز في توضيح بعض الأمور التي يصعب على الكاتب أحياناً التصريح بها ، لذلك يلجأ إلى الرمز لأنه « التعبير الوحيد لجوهر غير مرئي ، وقنديل شفاف شعلته روحية[١] » .

وتختلف الآراء حول تحديد بعض العناصر الرمزية ، نظراً للاختلاف في تحديد الهدف من النص الأدبي المراد دراسته ، ففي حين يرى بعضهم أن الأشياء دلائل رمزية ، يعدّها آخرون مجرد كلمات لا توحي بشيء ، وسأحاول هنا تحليل بعض الدلائل الرمزية التي أرى فيها دلالات لقضايا معينة أراد الكاتب التعبير عنها .

أ- المكان والرمز :-

منذ البداية نلاحظ سيطرة الرمز على الرواية ، وكأن الكاتب يؤمن أنها لغز وعلى القارئ حله ، لذلك غيّب المكان الواقعي وأحلّ محلّه الرمز المكاني ، فأتى المكان مفتوحاً وعلى القارئ تحديده .

وعلى الرغم من تغييب المكان ،فإن القراءة المتأنية للرواية ، تُظهر أنها رواية واقعية تتحدث عن مكان معين ، وقد دلّل الكاتب على هذا المكان ببعض الإشارات التي ساعدت على تحديده ، سواء أكانت هذه الإشارات في اللهجة أو الشخصية الرمز أو الزمان ، أو بعض الأشياء الخاصة في أماكن معينة ، نستدل بها على المكان ، وربما تكون الأحداث التاريخية الرمزية عاملاً مساعداً

---

(١) في الأدب الرمزي ، هنري بيير ، ت : هنري زغيب ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، ط١، ١٩٨١م ، ص٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في تحديده.

ومنذ البداية حدّد الكاتب المكان الذي سيتحدث عنه ، وذلك من خلال شخصية تاريخية ارتبطت بالمكان، فتحدث عن مجدها ومجد أجدادها الذين حوّلوا الوادي إلى جحيم لا يطاق نتيجة لما كانوا يفعلونه ضد الأتراك ، « وإذا كان الناس لا يزالون يتذكرون جازي الهذال قبل أربعين أو خمسين سنة ، وما فعله ضد الأتراك ...، يقتل ويدمر ويحرق ويأخذ ما يستطيع أخذه ، ويغيب في الصحراء فترة من الزمن يعتبرها كافية للنسيان ، فإذا عاد مرة ثانية حول الوادي إلى جحيم[١] »

فالكاتب هنا يتكلم عن مكان كانت تحتله تركيا منذ خمسين سنة ، وهو البلاد العربية الاسلامية ، وخاصة المناطق الصحراوية منها ، لأنه يدلل على ذلك ، من خلال وصفه لحياة الناس الاجتماعية ، وكيفية اعتمادهم على التمر الجاف واللبن .

ويوظف الكاتب رمز التمر الجاف واللبن ليعبر بهما عن تمسّك البدوي بصحرائه . فمهما يسبب لهم ذلك التمر من آلام في آمعائهم ، فإنهم يأكلونه أياماً متوالية «والناس في وادي العيون ... يبدون الرضا عن الحياة التي يعيشونها، ....إلا أنهم في بعض الأحيان يبدون السخط لأن التمر الجاف واللبن وهذا الخبز القاسي الذي يضطرون لأكله أياماً متوالية ، يجعلهم في حالة من العصبية نظراً للآلام التي تتولد في أمعائهم »[٢]

وقد استخدم الكاتب التمر دلالة للصحراء على اعتبار أنه يشغل حيزاً مكانيا فيها ، ويكوّن شيئاً من أشيائها . مع العلم أن هناك علاقة كبيرة تربط بين

---

(١) التيه ، ص ١٦

(٢) نفسه ، ص ١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المكان والمتمكنات ، فإينما تكن المتمكنات يكن المكان ، ولا يجوز أن توجد بدونه ، لذا سأقوم بدراسة الأشياء ، على اعتبار أنها رموز دلالية للمكان ، لتعطينا إيحاءات تدل على المكان الواقع .

ففي دراستنا للصور المكانية في الرواية ، نلاحظ رمزية الزمان وجدلية علاقته بالمكان ، وسنتوقف عند بعض الرموز التي استخدمها الكاتب لسرد الأحداث التاريخية التي مرّت بها المنطقة .

ولعلّ الرياح التي تهب على الصحراء في أوقات متباعدة ، تعدّ رمزاً للخطر المتمثل في هجوم القبائل المجاورة ، لذلك كانت هناك أشجار السدر والشيح القصيرة المستدقة ، وكأنها حرّاس للوادي ، فهي رمز القوة والصمود والمجابهة ، إذ تمنع تقدم الرمال [١] ، التي وظفها الكاتب لتكون رمزاً من رموز الصحراء .

فالرمال هي الشئ الملاصق للصحراء ، وأحد مكوّناتها الرئيسية ، وبما أن القبائل المجاورة كانت تتخذ من الصحراء مقراً لها ، فقد كانت الرمال رمزاً لتلك القبائل ، ليجسّد الكاتب عن طريقها ، مرحلة تاريخية معينة مرّت بها تلك الصحراء وفي فترة زمنية معينة ، فكانت تسودها حياة ملأى بالمعارك والفتوحات التي تشنها القبائل المتجاورة ضد بعضها ، ممّا يؤدي إلى نشوء حالة من عدم الاستقرار في الوادي [٢] .

وبما أن الرياح تمتاز بعدم الاستقرار ، بالإضافة إلى عدم وجود فترة زمنية محددة لهبوبها ، فقد وظفها الكاتب للتعبير عن حالة الفوضى التي كانت تعمّ الوادي ، نتيجة لهجوم القبائل المجاورة من جميع الجهات ، وقد أجدني مضطرة لاقتباس مقطع طويل نسبيا ، أوضّح من خلاله رمزية الرياح ، ودلالتها على

---

(١) التيه ، ص ٩

(٢) نفسه ، ص ٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المكان في تلك الفترة :

« في مواجهة الرياح الشرقية التي تهب من جهة الصحراء ، كانت رياح البحر تهب من الجهة الأخرى ، وعند سفوح جبال الصّد العالية ، الممتدة ، وفي الأودية العميقة ، كانت رياح الصحراء ورياح البحر ، والتي لا تتوقف عن الهبوب معظم أيام السنة ، تلتقي ، وهناك ، وهي تتواجه لأول مرة ، تتصارع ، تلتحم ، تتقدم وتتراجع ، كانت تفعل ذلك دون توقف ، غير آبهة بالحواجز والعلامات التي وضعها البشر ، كما لا تعترف بالرغبات أو الأمزجة ، حتى إذا تغلبت ريح على ريح ، فوصلت رياح الصحراء إلى العوالي ، أو واصلت رياح البحر طريقها إلى ما وراء جبال الصّد ، فإن أمزجة الناس الذين تصلهم ، وتصرفاتهم ،وحتى أخلاقهم ، تكتسب صفات جديدة ، تظهر واضحة في التعامل والنظرة ، وتبقى كذلك إلى أن تأتي الرياح الأخرى فتغيرها [١] .

فالكاتب هنا يتكلم عن تاريخ منطقة معينة ، وفي فترة محددة ، وهي الفترة التي كانت تلتقي فيها القبائل المتنازعة ، فتنتهي هذه المنازعات بإعدام ملوك وخلع آخرين للسيطرة على قبائلهم ، غير مبالين بالحواجز الموضوعة بين هذه القبائل ، وبسيطرة قبيلة على أخرى ، تتغير تبعاً لذلك حياة الناس من جميع جوانبها .

وقد جسّد الكاتب صورة هذه القبائل أيضا من خلال رمزية الجراد والهواء الأصفر ، فبيّن أن ذلك المكان ، يكبر ويصغر تبعاً لغزوات تلك الأشياء ، فمجيء الهواء الأصفر والجراد إلى هذه المنطقة ، يشير إلى واقع القبائل العربية في تلك الفترة ، الذي كان يقوم على الغزوات التي تتسبب في النهاية في الكثير من الضحايا وبذلك تبدأ الثارات بين القبائل ، « هكذا كان العالم في مطالع هذا القرن ... ، أما موران ... ، فكان أمراؤها المائة يتنازعون أجزاءها

---

(١) بادية الظلمات ، ص ٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما تتنازع النسور ، كانت « دولهم » تكبر وتصغر ، وبعض ، وبعض الأحيان تنتهي تبعاً للأمطار والجراد ، وتبعاً للغزوات أو الهواء الأصفر ... لكنه خلال الفترة القصيرة التي يكون ، يخلّف من الضحايا والأحقاد والثارات ما يجعل الحياة خوفاً مستمراً وثارات لا تنتهي [١] »

وتتطور رموز الكاتب بتطور الحدث ، فبعد العرض لتاريخ هذه القبائل، تأتي جهة أخرى تتصارع على هذه المنطقة ، وقد جسّد الكاتب هذا الصراع عن طريق الأمطار ، إذ نرى أن متعب الهذال وأقرباءه ، قاموا بترميم البيت خوفاً من أن تزيحه هذه الأمطار ، فترميم البيت هنا ، وبناء غرفة جديدة ، يُعدّ رمزاً للثبات والتصدي لهذه الأمطار ، وشعور الهذال بالقوة والراحة بعد الترميم ، يعني الاحساس بالاطمئنان والأمان لوجود وسائل دفاعية تستطيع الوقوف في وجه هذه الحملة [٢] .

وبتطور الحدث ، كان لا بدّ من استخدام رموز تدل على الحياة القديمة ، وذلك للمحافظة عليها من الغياب عن ذهن المتلقي ، على امتداد صفحات الرواية .

فأم الخوش ، تلك المرأة العجوز ، التي فقدت عقلها بعد خروج ابنها الوحيد في قافلة تجارية ، كانت رمزاً للأرض المعرضة للضياع ، فنرى أنها بمجرد قدوم الحملة ، أحسّت أن خطراً ما ينتظرها ، لذلك نراها دائما تذهب إلى مضافة ابن الراشد حيث يجتمع الرجال ، وتنظر إليهم بحقد ، فهي تعرف أن من وراء أولئك الرجال ، أمراً سيؤدي في نهاية المطاف إلى ضياع الوادي ، ذلك الوادي الذي هو ذاتها ، ففيه تربى الخوش - ابنها - وهو يحمل جميع ذكرياتها التي

---

(١) تقاسيم الليل والنهار ، ص ٩-١٠

(٢) التيه ، ص ٥٠-٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مرّت، وضياعه يعنى فقدان أم الخوش لذاتها [١] .

وقد استطاع الكاتب ، تجسيد فكرة الضياع هذه عن طريق أم الخوش وابنها وأشيائها ، فغياب الخوش عن الوادي ،يعني غياباً للقوة التي تستمد منها أم الخوش قوتها - مع العلم أن أم الخوش كانت رمزاً للأرض التي ستضيع ، لذلك نرى أنها بدأت تضعف شيئاً فشيئاً وكأنها استسلمت لما سيحصل فيما بعد ، وقد بين لنا الكاتب مصير هذه الأرض ، وذلك عن طريق أشياء أم الخوش التي جمعتها وكوّمتها في وسط الخيمة ساعة الرحيل ، وقد كانت هذه الأشياء ، عبارة عن ملابس قديمة للخوش ، فهذه الأشياء ، رمزٌ للحياة القديمة بما تحمله من معان تخص أم الخوش أو غيرها ، وقد أشار الكاتب الى النهاية الحتمية لهذا الوادي ، فماتت أم الخوش وتبعثرت أشياؤها ، وتبعثُر أشيائها يدل على الشتات والضياع الذي سيلاقيه أهل الوادي بعد موت الأرض ورحيلها [٢] .

وبانتهاء الحياة القديمة ، بدأت عندنا مرحلة جديدة ، وهي مرحلة الرحيل والتشتت ، إذ لجأ الكاتب إلى عدة رموز لوصف هذه المرحلة ، فكانت روضة المشتى التي تصيب بلعنتها كل من يمر من جانبها ويغادر الوادي ، رمزاً للهذال الذي يصيب بلعنته هؤلاء الذي يرحلون - مع العلم أن الهذال كان رمزاً للقيم البدوية بما تحمله من معان تدل على الحياة القديمة - لذلك نراه يعبر عن معارضته لرحيلهم بإحداث خلل ما فيهم ، فكانت أول لعنة قد أصابت زوجته وضحة ، وكأنه يحمّلها مسؤولية الخروج ، ثم تلاها ابنها فواز ، « هل هو ماء روضة المشتى الذي يصيب بلعنته واحداً آخراً من عائلة هذال ، أم هناك قوة خفية غامضة ، قاسية ، وشديدة العتو ، هي التي تلاحقهم واحداً بعد آخر حتى تمحقهم، فلا تترك أحداً أو أثراً منهم[٣] » .

---

(١) التيه ، ص ٥٥

(٢) نفسه، ص ٦٤-٦٥

(٣) التيه ، ص ١٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يقتصر وجود الهذال فقط في روضة المشتى ، إذ نلاحظ أن وضحة -زوجته - عندما ذهبت إلى الحدرة ، كانت تترك النساء اللواتي جئن للاطمئنان عليها وتهرب إلى الفلاة ، وكأن الفلاة رمزٌ للهذال نفسه ، فهي عندما تهرب إلى هناك ، ترى الهذال ، فتشعر بالأمان والاطمئنان [١] .

ب - المكان الرمز والأسطورة :

من خلال وصف الكاتب للوادي ، نلمس أن الوادي مكان أسطوري ، فالخاصية التي يمتلكها هذا الوادي بموقعه المميز ، وكذلك طريقة الكاتب في تحديد جغرافيته تدل على أنه يتكلم عن مكان واقعي ، إلاّ أنه يستخدم الرمز ليدخله في عالم الإسطورة ، فهو مكان موجود حقاً ، تنبت على امتداده أشجار النخيل ، ثم تأتي في نهايته شجيرات الإثل ثم السدر والشيح ، لتمنع الرمال من الزحف إلى الوادي [٢] .

كما ساهمت الشخصيات التي وظفها الكاتب في تكوين المكان الأسطورة لتتعدى كونها نماذج بشرية ، فتتفاعل مع المحور الرئيسي في الرواية -المكان - وتحوله إلى مكان أسطوري ، وقد يتخذ الرمز بعده من هذا التكامل بين الإنسان والمكان ، فالمكان يؤثر في نفسيات الناس ، وتتغير تصرفاتهم حسب تقلبات الزمان ، فهم خليط من الوداعة والجنون ، كما أن المكان يؤثر على معتقداتهم ، فهم «يحسون أن قدرة مباركة هي التي ترعاهم وتيسّر لهم الحياة [٣] » ، حتى بالنسبة للقوافل ، فإن هذا الوادي « هبة الهية لإنقاذ الناس وسط الصحراء ، فكانت القوافل عندما تأتي إلى الوادي ، تحس بنشوة أقرب إلى الرعونة [٤] ».

إضافة إلى ذلك فإنه يعطي لشخصياته صفات تدخلهم إلى عالم الأسطورة ،

---

(١) التيه ، ص ١٢٧ -١٢٨

(٢) نفسه ، ص ٩

(٣) نفسه ، ص ٧

(٤) نفسه ، ص ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نتيجة لالتحامهم بهذا المكان وحبهم له ،مثل النبؤة التي جاءت لمتعب الهذال عندما ولد ابنه مقبل ، إذ أحّس أن هناك شيئاً غريباً سيحدث ، فسيطر عليه الحزن وأصبحت جميع أفعاله مضطربة ، وقد تحققت نبؤته عندما جاء الأجانب الثلاثة إلى الوادي تملكه إحساس غريب تجاههم ، « أما لماذا كان متعب الهذال بهذا الشكل ، ولماذا نظر إلى هؤلاء الأجانب تلك النظرة القاسية المليئة بالمخاوف ، فإن حالة من الإلهام ، أقرب إلى النبؤة ملأت نفسه وحياته في السنوات الأخيرة» [١] ثم جاءت نجمة المثقال عرافة الحدرة وأكملت هذه النبؤة ، إذ حذّرت من مصير البلاد قبل وقوع المصيبة ، وقد قالت أم الخوش مثل ذلك ، ولم ينس الناس ما سمعوه منها «قبل حلول الحول القيامة تقوم والوادي يحترق [٢]»، وهذا ما حدث بالفعل.

فهذه الطريقة التي يعيش بها أهل الوادي، حتى القادمون إليه ، تجر الوادي إلى عالم الأسطورة ، ونتيجة لذلك ، نشأت علاقة غريبة بين هذا الوادي وناسه ، فنرى أن الدمار الذي حلّ بالوادي ، وبالعلاقات الاجتماعية فيما بعد ، كان الالتحام بين المكان والإنسان ، وبمجرد الرحيل عنه أصابه ما أصابه ، وقد يتخذ الرمز بعده من هذا الالتحام بين المكان والإنسان ،إذ اتخذ الخروج من الوادي أشكالاً متعددة ، بينت موقف الكاتب من هذا الخروج ، وقد لاحظنا بعض النماذج المهمة التي حدثت في الوادي ، والتي تعدُّ رمزاً لمعاني عميقة تقدم لنا هذا الرحيل بصور شتى .

وتمتد إيحاءات الصحراء الرمزية لتشمل موران وحران ، وباقي المناطق التي ظهرت فيما بعد ، وبذلك أصبحت الصحراء تجمع بين الماضي والحاضر ، الماضي بما فيه من معتقدات يحملها أشخاص متعلقون بأمكنة محددة ، مثل صالح الرشدان ، ومفضي الجدعان ، وابن ثفاع وغيرهم ، والحاضر الذي صوره الكاتب

---

(١) التيه ، ص ٣٨

(٢) نفسه ، ص ٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بحديثه عن الأشياء التي كانت رمزاً لبداية دخول الحضارة إلى البلاد ، والتي لمسناها على امتداد صفحات الرواية ، وبذلك يبدأ الصراع بين الماضي والحاضر ، إذ يأخذ هذا الصراع صورتين : الأولى تتمثل في الرحيل عن الوادي ومحاولة التأقلم مع الحياة الجديدة ، والثانية متمثلة في الوافدين على المكان ، والذين يقبلون عليه بروح الاستغلال والطمع ، وقد اتخذ هذا الصراع اتجاهات جديدة ، بعد موت مفضي الجدعان ، الذي كان رمزاً للحياة القديمة ، إذ نرى أن الحديث عن موته سيطرت عليه الأسطورة والخيال ، وبقي كذلك حتى تعمق المعنى لدى أهل الوادي ، فقاموا بانتفاضتهم .

ولم يقتصر الرمز على تبيان النواحي الحضارية التي دخلت البلاد ، وإنما لجأ إليه الكاتب ليبين آثار الحضارة السلبية ، التي رمز لها الكاتب بالصور التي قام عبده محمد بعبادتها ، والتي أدت في النهاية إلى تحطيمه نفسياً واجتماعياً .

ولكن يبقى السؤال . هل ما يرصده الكاتب هو صورة فعلية لذلك المكان وذلك الزمان، أم أنه أسطورة من نسج الخيال ؟

لعلّ القراءة الأولى للرواية توحي للقارئ أن الكاتب يتكلم عن مكان أسطوري ، فالمكان بحد ذاته مكان بدائي ، وتصرفات أشخاصه كانت أقرب إلى عالم الطفولة ، حتى طريقة عرضه للأحداث وكثرة الشخصيات في الرواية وتداخلها ببعضها ، تدل على أنه عالم أسطوري ليس له وجود ، إلاّ أن الكاتب عندما انتهى من عرض صورة تلك الحياة في الصحراء ، بتفاصيلها اليومية الدقيقة ، بدأ يعطي لأمكنته إيحاءات ودلالات رمزية كي يحملها سمة الواقعية، وعلى الرغم من ذلك ، فقد زادت هذه الرموز من أسطورية المكان ، حتى شخصياته بدأت تنمو حتى دخلت في عالم الأسطورة ، فمثلاً اختفاء متعب الهذال وحتى الطريقة التي اختفى بها ، ثم ظهوره المفاجيء في كل مكان وكل زمان ، وبالتالي سيطرته على قيم الناس ومعتقداتهم ، تبين أنه يتكلم عن مكان أسطوري .

لكن بعد نشوء المدن ، لجأ الكاتب إلى إضفاء صفة الواقعية لتلك المدن،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يظهر الرمز عنده إلاّ وسيلة لاختصار الواقع وإظهاره في صورة مكثفة فالرمز « بما هو إيحاء مكثف نوعاً وكّماً ، يشكل اختزالاً واجتزاءاً لرؤية تدعي التعميم والإطلاق لظاهرة ما ليس على المستوى الاجتماعي (المكاني) فقط ، بل أيضاً على المستوى التاريخي الزمني» [١] ، فالكاتب لم يقدم لنا فقط صورة مكانية صامته لتلك المنطقة ، وإنما استطعنا من خلال عرضه لأحداثه المتداخلة ببعضها ، أن نعي تاريخ تلك المنطقة ، عن طريق لجوئه إلى الرمز في تبيان النواحي الاجتماعية ، والمتمثلة في وداد وعلاقاتها الغرامية ، أو السياسية التي سادت تلك المنطقة والتي تمثلت في مطيع الصحفي القادم من مصر ، والذي يحفل بماض سياسي اضطر للتخلي عنه في هذه البلاد ، في سبيل الحصول على لقمة العيش ، وبذلك تكاملت الصورة لدى الكاتب ، إذ تكونت لنا صورة مكانية تحمل الحياة بجميع أبعادها ودلالاتها.

(١) أبحاث في النص الروائي، د.سامي سويدان ، مؤسسة الأبحاث العربية ، س.م.م ط١ ، ١٩٨٦ ، ص ٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً : المكان واللغة

أ - جماليات الوصف

ب - السرد والحوار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لعل قدرة الكاتب الإبداعية ، تظهر من خلال تميزه في بلورة الكلمات وتحويلها إلى واقع محسوس ، بحيث يستطيع بها بناء عالم من الكلمات ، نلمس منه ما يدور في ذهن الكاتب من آراء وأفكار .

كما وتتجلى قدرته ، بربطه لهذه اللغة ،مع بقية عناصر الرواية ، لتتحد جميعاً فتكوّن عالماً خاصاً ، نتعرف من خلاله على قضية معينة أراد الكاتب مناقشتها في تلك الرواية .

وقد تُعد اللغة ، من المواد الأساسية اللازمة لبناء الرواية وتشكيل عالمها الفني ، إذ أن وظيفتها لم تقتصر على كونها وسيلة لبناء الرواية فقط ، بل تعدّت ذلك لتصبح لها وظيفة تفسيرية ، « فهذه اللغة مهمة في تأمّل الصنعة الفنية ، ففي الوقت الذي تخدم فيه الدور الخطير ، هدف «النموذج» ، تخدم غرض الحياة أيضاً »[١] ، ومن هنا يتشكل عندنا عالم مكوّن فنيا ولغويا ، يعكس تجربة الكاتب ونظرته للحياة .

من هنا ، نرى الاختلاف بين اللغة الأدبية واللغة العلمية أو الإخبارية ، ففي حين تكون وظيفة اللغة العلمية توصيلية ، تهدف إلى نقل معلومات خاصة للقارىء، تظهر القيمة الجمالية للغة التعبير الأدبي ، بحيث تكشف عن خبايا واقع معين يعكس تجربة الكاتب ونظرته للحياة ، وبذلك تكون هذه اللغة «تركيبة معينة، واختباء معين [٢] ، يكشف عن النظام الدقيق المعقد الذي يربط بين العناصر اللغوية بعضها ببعض من ناحية ، ثم بينها وبين عالم التجربة غير اللغوية من ناحية أخرى»[٣] .

وقد يكون المكان أحد عناصر الرواية ، الذي تعمل اللغة على تكوينه ، بحيث تتعدى رسم بعده الجغرافي ، فتحوله إلى حقيقة معيشه ، نستطيع منها معرفة جميع الأبعاد السياسية والاجتماعية والفكرية ... ، التي قصد الكاتب التعبير

---

(١) لغة السفينة ، إبراهيم السعافين ، مجلة أقلام ، ع٢ ، شباط ، ١٩٧٩م ، ص ٧٧ .

(٢) نقد الرواية ، نبيلة ابراهيم ، النادي الأدبي ، الرياض ، ١٩٨٠ ، ص ٣٨ - ٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنها من خلال تكوينه للمكان ، وإذا ما استخدمنا هذه اللغة بكفاءة ، فإنها تجعل ماضي هذا المكان «واقعاً معاشاً ، وتمتد بالحاضر إلى رؤية مستقبلية مشحونة بالتوقعات»[١] .

ولعلنا نلمس عند دراسة علاقة المكان باللغة ، أن لغة الكاتب ساعدته على بناء عالم يحمل الزمان في جميع مراحله وإشعاعاته ، فوظف اللغة لتخدم موضوعه، لذلك تنوعت صياغته الكتابية ، فظهر أسلوب السرد إلى جانب الحوار، كما تداخل أسلوب الوصف مع السرّد ، ليكوّنا معاً المكان بكل أبعاده الطبيعية والاجتماعية ، وقد كان لكل أسلوب جمالية محددة ، ساهمت في إضفاء بعد جديد للمكان ، وذلك على النحو التالي :

١ - جماليات الوصف :-

لقد كان الوصف من أهم الأساليب اللغوية التي اعتمدها الكاتب لتجسيد مكانه الروائي ، إذ استطاع ومنذ البداية أن يكوّن اندماجاً بين القارىء والمكان ، فبدا وكأنه يتعايش معه بجميع مراحله ، فصور لنا الصحراء وطريقة ارتباط أهلها بها ، لنستشف من ذلك البعد النفسي والاجتماعي لهذا المكان من خلال علاقة أهله به .

وقد يستخدم الوصف أحياناً ، للقضاء على سكونية المكان في الرواية ، إذ يلجأ الكاتب إلى استخدام غير أسلوب يجعل من المكان الساكن مكاناً متحركاً ، فتتحول الصور الوصفية إلى صور سردية ، وذلك من خلال الأحداث الروائية التي تقوم بالبناء المكاني في الرواية .

وقد نلاحظ أن الكاتب لجأ إلى غير أسلوب لغوي ، ساعده على تكوين مكانه الروائي ، وإضفاء صفة المرونة عليه ، بحيث أننا استطعنا التنقل بين أمكنة الكاتب، وكأننا نتعامل مع مكان حيّ وواعٍ لكل ما يدور حوله ، وقد ساعدت الألفاظ التي انتقاها الكاتب ، على إضفاء هذه الصفة عليه ، فكان من خلال وصفه

---

١ - نفسه ، ص ٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلجأ إلى الألفاظ الرقيقة التي توحي بالحب والانتماء لهذا المكان ، ويظهر هذا واضحاً في بداية الجزء الأول من الرواية ، وأثناء حديث الكاتب عن الحياة الاجتماعية في وادي العيون ، وطبيعة تكوينه قبل مجيء الحملة إليه ، فقد شبهه بطيور القطا الطرية ، اللامعة .

وقد تزيد بعض الكلمات التي يستعملها الكاتب في وصف المكان من عزته وشموخه ، فيبدو وكأنه يتكلم عن شخص أثقلته المتاعب ولكنه ما زال صامداً ، ويظهر ذلك واضحاً أثناء حديثه عن حياة البدو في ذلك المكان ، التي تعتمد على مجيء القوافل لتخفف من عزلتهم قليلاً ، إلاّ أن هذا المكان لا يستطيع احتمال هذه القوافل لفترة طويلة ، لأن ذلك يحمّله أعباء ثقيلة ، ومع ذلك فإنه ينتظر قدومها ، نظراً لما تحمله له من أخبار عن أبنائه المسافرين ، «وما بين الراحة والأمل ، وباستمرار الماء والقوافل ، يستمر الوادي عزيزاً قويا ، لا يخاف ، ولا يتردد لأنه سيجد طريقته ، ودائماً يكتشف هذه الطريقة ، لمواجهة المصاعب والتغلب عليها »[1]

فالكاتب هنا يتكلم عن مكان واعٍ ، متحرك ، ينهض بنهوض الأحداث ويسكن بسكونها ، مما يضطرّه إلى التلاعب بلغته ، فتأتي أحياناً صامتة ، وأحياناً أخرى متحركة ، فتضفي على المكان صفة المرونة التي توحي بقدرته على العطاء ، وقد لمسنا ذلك من خلال صورة رسمها الكاتب للوادي بعد نزول المطر ، إذ اهتزت الأرض ، وبدأ باطنها يتدفق إلى خارجها ، وقد شبهها الكاتب كالالتحام بين رجل وامرأة ، «ويشبه لحظة النشوة التي يحس بها الإنسان»[2] ، فأنسنة المكان هذه ، لم تأت عبثاً ، بل كانت تمهيداً لتغيير لغة الكاتب ، وإشراك المكان في الحدث .

لم تبق لغة الكاتب على نفس الوتيرة ، ولم يثبت في استخدام الأسلوب

---

١ - التيه ، ص ١١ ، ص ١٥٠

٢ - نفسه ، ص ٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهادىء الذي تسيطر عليه الحركة الخفيفة ، إذ جاء الحدث وأجبره على تغيير لغته ، ممّا أدى إلى ظهور الألفاظ المضطربة الضاجة بالحركة ، فتشترك الطبيعة مع الإنسان والحيوان في التعبير عن الرفض القاطع للتغيير الذي حلّ بالوادي بعدما جاءت الحملة ، وأقامت المعسكر ، وبدأ الرجال يخططون الوادي ويقيمون سياجاً من الأسلاك ، وينشرون مواد غريبة .

وربما يلجأ الكاتب إلى الوصف الدقيق ليبين أهمية الحدث ، وتأثيره على المكان فيما بعد ، وذلك من خلال استخدام الألفاظ القوية إلى جانب الألفاظ التي توحي بالضعف والانهزام ، مستعيناً بأسلوب التشبيه وقد أضطر هنا لاقتباس مقطع طويل نسبيا لتوضيح هذه الفكرة :-

« التراكتورات وهي تهجم مثل ذئاب جائعة على الأشجار ، وتبدأ تمزقها وترميها أرضاً الواحدة بعد الأخرى ، ثم بعد ذلك تسوي بين شجرة وثانية وبين الساقية والأرض التي حولها ، حتى إذا انتهت من مجموعة من الأشجار ، هجمت بنفس الضراوة والوحشية على مجموعة جديدة ، وبدأت تقتلعها . كانت الأشجار وهي تميل وتترنح ، قبل أن تسقط ، تصرخ ، تستغيث ، تولول ، تجن ، تنادي ، نداءً أخيراً موجعاً ، حتى إذا اقتربت من الأرض ، هوت بتضرع ، وكأنها تحتج أو تريد أن تلتحم بالتراب من جديد ، في محاولة لأن تنبثق ، ولا تنفجر مرة أخرى »[1] فالأفعال السابقة ، أفعال متضادة ، بعضها يوحي بالقوة ، وبعضها الآخر يوحي بالضعف ، حتى الطريقة التي ركبت فيها الجمل ، كانت توحي بأن الكاتب لا يتكلم عن مكان ساكن ، بل مكان متحرك ، يعي ماذا حلّ به ، فكان يقاوم تماماً مثلما يفعل الإنسان حينما يتعرض للخطر ، كما أن تناوُب الأفعال عنده بين الماضي والمضارع ، أضفى على المكان حركة أقوى ، ولعلّ الرواية تحوي الكثير من الأمثلة التي توضح ذلك[2] .

كما أن تشبيه التراكتورات بالذئاب ، مستمد تقريبا من البيئة الصحراوية

١ - نفسه ، ص ١٠٥

٢ - أنظر التيه ، ص ٧٠ وما بعدها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تنتشر فيها الذئاب ، وهو تشبيه مأخوذ من أهل الوادي فيعبر عن شعورهم تجاه هذه التراكتورات ، واتجاه الحدث بشكل عام .

ولم يقتصر وصف الكاتب للمكان على الأسلوب المباشر ، بل فعل ذلك من خلال نفسية الشخصية وتصرفاتها ، بحيث تنعكس صورة المكان من خلال حركة الشخصية فيه ، فتعطي المكان صفة المرونة .

وقد تتبلور حركة الشخصية في المكان من خلال صورة لحران قدمها الرواي عن طريق شخصية محمد عيد ،« وإذا كان محمد عيد قد احتمل أصياف حران سنين كثيرة ، فإنه الآن ، وهو يصلها ، يشعر بالاختناق ، ليس من الحرارة وحدها ، وليس من الرطوبة وحدها ، ... كانت حران في وقت سابق أكثر رحمة ، وكان بإمكان الإنسان أن يتعود عليها أو أن يحتملها ، أما الآن ، وفي ظل الحالة النفسية التي تسيطر عليه، تصبح معادية ، قاهرة ، أو أشبه ما تكون بالقبر»[١] .

فطريقة الوصف هذه مكنتنا من الدخول إلى عالم الشخصية الداخلي ، فهنا امتزجت صورة المدينة بشخصية محمد عيد ، فبدت وكأنها المعادل الموضوعي لهذه الشخصية ، كما أن علاقة الشخصية السلبية بالمكان ، خلقت حركة مرنة في وصف المكان ، إذا استطعنا التعرف عليه عبر زمانين متتاليين .

وكذلك الحال بالنسبة لوداد الحايك زوجة الدكتور المحملجي ، عندما جاءت لتستقر في موران ، بدت لها موران وهي تنظر إليها من الشباك «مدينة منفرّة ، فالبيوت متلاصقة ، واطئة ، متتابعة ، وكأنها سلسلة لا نهاية لها من كتل طينية صماء ، وأشجار النخيل القليلة المتباعدة ميتة الخضرة ، عارية ، أو أقرب الى العري ، حتى أنسام الفجر ، رغم طراوتها ، كانت جافة ومثقلة برائحة الغبار»[٢] . فطريقة الوصف جاءت وكأن هناك خلافاً ضمنيا بين السارد والشخصية التي تحدث من خلالها عن المكان ، لذا جاءت كلماته في الظاهر رقيقة ، مع أن الهدف من

---

١ - الأخدود ، ص ١٨٤

٢ - نفسه ، ص ٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوصف كان إظهار المدينة بمظهر قاس حسب ما تراه هذه الشخصية .

مما تقدم ، نلاحظ أن الكاتب اعتمد اعتماداً كبيراً على الوصف ، وكان في وصفه يقدم أمكنة ساعد الزمان والإنسان على تغييرها ، كما استطاع أن يجعل القارىء يتنقل بين الأمكنة ، وذلك باعتماده على الأسلوبين الوصفي والسردي ، الذين رسم بهما الصحراء فظهرت بلوحات فنية مليئة بالحركة .

وبما أن الكاتب يؤمن بأن « للغة جبروت خفي أو ضمني ، يملي على الكثير من الروائيين موضوعاتهم »[١] فقد جاءت لغته للكشف عن أبعاد المكان متجاوزاً البعد الجغرافي والواقعي ، ليشكل مكاناً خيالياً سيطر عليه الأسلوب النثري ، ولكن بلغة شعرية ينقصها الوزن والقافية ، وذلك من خلال لجوئة إلى أنسنة المكان، وإعطائه مشاعر انسانية ، مما جعل المكان بتوحده مع بشره يكتسب الذات الانسانية ، فيُشعر القارىء بأن المكان مرنٌ وليس ساكناً ، وقد وردت عندنا صور كثيره ، امتدت على صفحات الرواية ، تبين لنا المشاعر الإنسانية التي يتصف بها المكان .

فحران التي فقدت أحد أبنائها ، عندما ذهب للعمل في اقتلاع الصخور من البحر ، ولم تعوّض أهله الذين جاؤوا للمطالبة بذلك ، حزنت حزناً كبيراً وبدت أكثر شيخوخة ، لذلك نامت متسائلة حزينة ، لا تعرف ماذا حصل[٢] ، إذاً فهي متعاطفة مع ناسها تحزن لحزنهم وتفرح لفرحهم .

كما وتتجلى إنسانية حران بعد دفنها لابن الراشد ، إذ نسيت ما فعله بها ، وما باعه من أراضيها للشركة الأمريكية ، فشيعت جثمانه بحزن وصمت[٣] .

وعلى الرغم من أن حرّان اتصفت بصفات إنسانية حسنة اتجاه هؤلاء إلا أنها في المقابل كانت عاجزة فلم تستطع أن تخفف من غضب الرجل الذي جاء مع هاجم .

---

١ - الكاتب والمنفى ، عبد الرحمن منيف ، ط ٢٢٥

٢ - التيه ، ص ٣٢٢

٣ - نفسه ، ص ٣٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تتمكن من إقناعه بالنوم في أحد بيوتها تلك الليلة .

وكذلك الحال بالنسبة لموران ، فقد حزنت حزناً كبيراً بعد موت سلطانها خربيط إلاّ أنها عجزت عن معرفة الأسباب التي دفعت بالحكيم للمغادرة إلى حران بعد ذلك[١]، إذاً فهي واعية ومدركة تماماً للأصول البدوية العريقة ، التي تفرض على الحكيم ، المكوث إلى جانب صديقه السلطان خزعل ابن السلطان المتوفىّ ، وعدم مغادرة البلد .

فهذه بعض الصفات التي منحها الكاتب للمكان والتي ورد كثير منها على امتداد صفحات الروايةإذا أضافت قيمة جمالية أخرى للوصف بإذ كما استطعنا التغلغل في مكان الكاتب وشخصياته ، عن طريق الوصف الذي لم يعد مجرد زخرف من الزخارف الأدبية بل أصبح وسيلة مفيدة لإظهار جماليات المكان وقيمته .

ب - السرد والحوار :-

حاول الكاتب من خلال هذين العنصرين ، إخضاع اللغة كي تخدم موضوعه ، فالمنطقة التي تدور فيها الأحداث ، وطبيعة الشخصيات التي استخدمها الكاتب لإدارة هذه الأحداث ، تفرض عليه استخدام لغة معينة ، إذ أن المنطقة التي يتحدث عنها أقرب إلى البداوة ، والحياة التي يعيشها هؤلاء الأشخاص ، بسيطة ، قريبة من الحياة البدائية .

لذلك لجأ إلى استعمال اللهجة العامية في الحوار ، لأنها الأكثر قرباً وبالتالي دقة وصدقاً مع هؤلاء الأشخاص ، وأية لهجة أخرى ، لكي تكون مقنعة ، خاصة في مستوى الناس والبيئة التي تدور فيها الأحداث ، لا يمكن أن تعتمد لهجة فصيحة ، أو مستوى من الخطاب ،التجاوز إدراك مستوى هؤلاء البشر[٢] ، وفي بعض الأحيان جاءت لهجة الرواية أقرب إلى اللهجة الوسطى ، إذ حاول الكاتب أن يوصل أفكاره بلسان شخصياته، وهي شخصيات أقل من أن تعمد إلى اللغة

١ - الأخدود ، ص ١٠

٢ - الكاتب والمنفى ، عبد الرحمن منيف ، ط ٢٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصحى، فلجأ إلى استعمال لهجة البداوة التي تعد أقرب إلى اللهجات الفصحى .

ونظراً لاختلاف البيئات التي قدم منها الوافدون ، تنوعت لهجة الحوار عنده ، فظهرت اللهجة البدوية الخاصة بسكان شبه الجزيرة العربية التي تمثلت في الرواية بأهل وادي العيون وتوابعه والتي أصبحت فيما بعد موران وحران ، كما ظهرت اللهجة الشامية والمصرية ، فالتنوع الاجتماعي الذي فرضه عليه المجتمع ، أجبره على تنويع لغته بحيث تتلاءم وجميع البيئات التي أتت منها هذه المجتمعات .

وإذا نظرنا في اللهجة البدوية نرى سيطرة الألفاظ القوية عليها ، أحياناً في شكلها ، وأحيانا أخرى في مضمونها ، إضافة إلى وجود بعض الألفاظ الخاصة بهؤلاء الأشخاص ، مما يدل القارىء ظاهرياً ، أنها ألفاظ توحي بالبداوة ، أكثر منها لغة وسطى .فالصحراء وهي المركز الرئيسي لأحداث الرواية تتميز لغتها بوجود نسق خاص لها ، وقد تغلب عليها في كثير من الأحيان اللغة الفصحى ، وسأورد هنا بعض الأمثلة التي توضح ذلك :

١ - في حوار دار بين ابن الراشد ودحام :

الحريمات ما هن بمزيونات ، الواحدة مثل النعجة : بياض ورخاوة وما بيها شي خلافه

- يا أبو محمد ، يا طويل العمر ، عطني النعجة واعطاك الله الجنة[1] .

فالكلمات : طويل العمر ، حرمه ، كلمات تكاد تكون محصوره في اللهجة البدوية وهي لهجة أهل موران وحران كما ورد في الرواية ، وتختلف مستويات الحوار عند أشخاص نفس البيئة ، وذلك حسب مركز الشخصية ، فإذا كان الحوار بين شخصين عاديين ، تسيطر اللهجة العامية الساكنة عليه ، فمثلاً في حوار دار بين متعب الهذال وابنه فواز :

---

١ - التيه ، ص ٢١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- وعرفت منين هم ويش يريدون ؟

- الناس حول المضيف قالوا إنهم نصارى

- ويش يريدون ؟

- سمعت ابن الراشد يقول لواحد منهم : قل لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، وقال الرجل وراءه : لا إله الله محمد رسول الله .

- وما يبغون ؟

- الناس يقولون إنهم جاءوا ليبحثوا عن الماء .

- وإنتْ .. إنتْ ويش سمعتهم يقولون[1] ؟

فهذا الحوار كان حواراً لهجته عامية ، لكن شكل الكلمة يوحي للقارىء بأن الكلام هو كلام فصيح .

أما إذا كان الحوار بين أشخاص تتفاوت مراكزهم فقد تختلف اللهجة وغالباً ما تكون فصحى ، فمثلاً في حوار دار بين الأمير ومجموعة من الرجال ذهبوا ليسألوه عن أسباب مجيئ الحملة إلى الوادي .

- ستكونون يا أهل وادي العيون أغنى الناس وأسعدهم ، وكأن الله لا يرى غيركم ...

وتغيرت لهجته :

- لقد صبرتم وتحملتم كثيراً ... الشهادة لله ، أما الآن فسوف تعيشون وكأنكم في حلم ، وسوف تتحدثون عن الأيام القديمة وكأنها سالفة من السوالف ..

وعاد إلى لهجته الأولى :

---

١ - التيه ، ص ٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- والخير ، يا جماعة الخير ، إذ عمّ عمّ [١] .

كما ظهرت عندنا اللهجة الشامية المتمثلة بالطبيب المجملي وعائلته ، وربما لا يظهر الفرق واضحاً بين اللهجتين الشامية والفصحى في طريقة الكتابة ، إلاّ أن طريقة الكلام هي التي تحدد ذلك ، وتكون هناك بعض الكلمات أو الحروف التي تميزها ، مثل أن يستعمل (ما) قبل الإسم أو الفعل ، وهنا سأورد بعض الحوارات المتقطعة التي توضح ذلك :

في حوار بين وداد والمحملجي :

«هاللحية ما حلوة ، كبرّتك وغيرّت وجهك»[٢] .

وفي حوار دار بين د. المحملجي ومحمد عيد

« اسمع يا إبني وتعلّم : الحكيم جاء إلى هذا المكان ليغير كل شيء : العقول والناس ... وحتى الأسماء ، ومن يعش ير !

- إسمع يا محمد ... أنت مثل إبني عزوان أو أغلى ، والوقت اللي قضيته واياك أكثر من الوقت اللي قضيته مع أولادي ... [٣]

فالكلمات إبني ، وإياك ، تميز هذه اللهجة عن الفصحى أو اللهجة البدوية .

وفي حوار بين الحكيم وزوجته :

هالدربكة كلها ما كانت لازمتنا !

وحين نظر اليها بتساؤل واصلت الهجوم :

- ونحن ما جينا لهون حتى ننحبس أو نموت طقيق[٤] .

---

١ - التيه ، ص ٨٥

٢ - الأخدود ، ص ٣٥

٣ - نفسه ، ص ٢٠

٤- المنبت ، ص ٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالاضافة إلى ذلك ، ظهرت اللهجة المصرية المتمثلة في رجل الصحافة مطيع، والاستاذ سمير ولعل هذا الحوار بينهما يبين هذه اللهجة :

- شكراً على إيه يا افندم ؟ أنا زعلان قوي .

- زعلان !

- أيوه يا افندم .. والا إيه معنى السفر المفاجىء ؟

- بقي لمدارس الأولاد أسبوع ، يا أستاذ سمير ، ولازم أوصلهم وأؤمن حاجاتهم !

- كده .... إذن[١] ؟

وبذلك فقد تنوعت اللهجة ، فمرة جاءت عامية ساكنة ، ومرة جاءت أقرب إلى العربية الفصحى .

ولتأكيد الالتحام بالمكان ، أورد الكاتب المثل الشعبي ، الذي كانت ألفاظة منتقاه من تلك البيئة ، وسأورد هنا بعض الأمثال التي توضح ذلك :

١ - قال السلطان في وصف الأجنبيات اللواتي جئن على ظهر السفينة : «هالحين ، ما هي وحده ، ثنتين ، ناقة وفلو ، ووحده ، أريني من الثانية ، الله ... الله ، مثل البرجي يلمعن ، ومثل القطا يدرجن[٢] .

٢ - وفي تعليق لابن نفاع على سيارة اكوب وراجي قال :

«الحجر اللي ما يعجبك بدميك»

ومثل ما الحمار يقطر الأباعر ويجرها ، وإن كانت أكبر منه ، فاليوم شفنا القطايه تشيل دبشاية[٣]

---

١ - الأخدود ، ص ٥٠٢

٢ - التيه ، ص ٣٩٣

٣ - نفسه ، ص ٤٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ - وفي تعليق له - ابن نفاع - على افتتاح عيادة الدكتور المحملجي قال:

«الكلب أخو السلوقي»[١] .

٤ - وجاء على لسان خزنة في تعليق لها على رحيل مفضي الجدعان .

«وعش يا كديش إلى حين ما يجيك الربيع»[٢] .

٥ - وجاء على لسان المحملجي :

« جدي لعب بعقل تيس »[٣]

فنلاحظ أن ألفاظ هذه الأمثال ، ألفاظ منتقاة من بيئة بدوية ، وكلماتها مأخوذة من الحياة اليومية التي يمارسها هؤلاء البشر ، حتى الوافدين على تلك المنطقة ، يضطرون لاستعمال مثل هذه الألفاظ ، نتيجة لتأثرهم بتلك البيئة ، وخير مثال لنا على ذلك هو الدكتور الشامي .

ولم يقتصر أسلوب الكاتب على الحوار فقط ، بل دمج بينه وبين السرد ، فارتبطت حركة السرد منذ البداية مع الحوار ، ليكونا المكان ، وأصبح السارد يتنقل من مكان إلى آخر ، فيكون في وادي العيون ، ثم ينتقل إلى حران وبعدها إلى موران ، وقد يُهيأ للقارىء أن الحوادث متقطعة ، بحيث يصعب عليه الربط بينها ، ولتلافي ذلك ، لجأ الكاتب إلى استخدام «تقنيات فنية مختلفة في أساليب السرد ، لينتقل روايته وشخصياته في الزمان والمكان ، عن طريق تقنيات الارتداد والاسترجاع والقطع المكاني والزماني ، ليحفظ لها - كما يقول أحد نقاد الرواية - الحيوية والتماسك اللذين تتصف بهما الرواية الجيدة»[٤] .

فنرى أن أساليب السرد عنده تنوعت ، كما تنوع زمانها ومكانها ، فيستهل

---

١ - نفسه ، ص ٥٠١

٢ - التيه ، ص ٥٢٩

٣ - الاخدود ، ص ٩٢

٤ - د. ابراهيم السعافين : لغة السفينة ، مجلة الأقلام ، ع ٢ ، شباط ، ١٩٨٩ ، ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجزء الأول من الرواية ، بلوحة فنية لوادي العيون ، الذي ذاب وتلاشى فيما بعد في حران وموران ، وبذلك بدأ السارد بالتنقل بين أمكنته الجديدة ، متأرجحاً بين ماضي حران ومستقبل موران وبالعكس ، فمثلاً بعد أن أعطى صورة لوادي العيون بجميع أبعاده ، بقي يتكلم عن الحياة البدوية ، ما يقارب المائة والسبعين صفحة ، ثم يهيىء للمرحلة الجديدة ، إلى أن يصل إلى حران فيتحدث عن بداية التغير ، وكيف بدأت البواخر تصل إلى حران حتى وصلت إلى هذا الحد من التغير ، وبعدها يتكلم عن موران في الجزء الثاني وما طرأ عليها من تغير ، ثم يعود إلى حران وينتقل بيها وبين موران .

ويعتمد الكاتب السرد المتقطع في حديثه عن تطور المدينة ، إذ يتخلل حديثه عنه ، حديث عن شخصية معينة يبين من خلالها جميع الأبعاد السياسية والاجتماعية الناتجة عن الأمكنة الجديدة ، ويظهر ذلك واضحاً في حديثه عن ابن الراشد ومشكلاته مع العمال ، ونعيم ومشكلاته مع ابن الراشد ، ودحام ومشكلاته مع العمال ، ثم الحالة التي وصل إليها عبده محمد فران حران ، إثر وصول باخرة الشيطان إلى حران ، فمن خلال هذه القضايا استطعنا تلمّس الابعاد السياسية والاجتماعية لهذا التطور [١].

وقد دمج الكاتب بين أسلوب السرد والمشهد المتحرك ، الذي أراد من خلاله أن يهيىء القارىء لحدث جديد يؤدي إلى اضطراب مستقبلي في المكان ، ففي حديثه عن الليلة التي ولد فيها ابن متعب الهذال قطع الحديث بجملة معترضة ، توحي للقارىء بأن هناك أمراً ما سيقع في هذا المكان - «ولا يعرف متعب الهذال لماذا أراد أن يحفر بأظافره الأرض القاسية تحت البساط وكأنه يعلمها ، يريد أن يترك فيها أثراً قويا »[٢] -، ثم يكمل المشهد بعد ذلك ، فيعقد مقارنة بين الأحداث التي حصلت ليلة ميلاد ابنه الاول وابنه هذا ، ولتفسير ما تقدّم ، أجدني مضطرة للتسلسل في الحديث المفصّل عن طريقة الراوي في السّرد .

ففي البداية نلاحظ أن الكاتب اعتمد الزمن الصاعد لسرد الأحداث ، وكان بين فترة وأخرى ينوه إلى أن هذا التاريخ الذي يتكلم عنه «جزء من تاريخ الوادي الأقرب الى النسيان»[٣] ، ويبقى يتكلم عن هذا التاريخ ، قاطعاً حديثه بين فترة

---

١ - التيه ، ص ٢٢٢ - ٢٣٥

٢ - التيه ، ص ١٩

٣ - التيه ، ص ٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخرى ليهيىء القارىء لحدث جديد : « في الأيام العشرة الأخيرة من المربعانية ، وعلى حين فجأة ، دون توقع أو انتظار ، وصل إلى وادي العيون ذلك الأميركي الذي سافر قبل شهور طويلة، وصل ومعه أربعة آخرون وعدد من رجال الأمير»[١] .

وبعد ذلك وبأسلوب سردي جميل يسيطر عليه عنصرا الحركة والتشويق يعطينا صور التغير للمكان : «إنها لحظات من المراقبة الدقيقة الحادة ، تخللتها المخاوف والدهشة . أما حين خرج بعض العاملين في المعسكر ، مع أولئك الذين كانوا داخل هذه الآلات ، ليلقوا نظرة ، فقد تراجع رجال وادي العيون والصبية ، بضع خطوات ، ووقفوا منتظرين خائفين ، وبطريقة مليئة بالزهو والثقة كان الرجال الجدد يدورون حول الآلات ، ويفتحون مصاريعها ويرفعون أغطيتها ، والآخرون ينظرون باهتمام »[٢]

وبذلك نقلنا السارد إلى مرحلة جديدة من مراحل الحياة في هذا المكان « إنها نهاية عالم ، أو ربما نهاية مرحلة من المراحل الطويلة التي سيطرت على الحياة في هذه الصحراء البعيدة المنسية»[٣] .

وبعد أن تكلم عن حران وما حدث فيها من تغير ، وما صاحب هذا التغير من صراعات سياسية واجتماعية واقتصادية ، يفتتح الجزء الثاني من الرواية بالحديث عن موران فكان حديثه عنها مفاجيء ، إذ أعطى لموران صورة وكأنه يعتقد أن القارىء يعرف ما هي ، أو أنه تكلم عنها من قبل : « بدت موران في تلك الأيام المبكرة من فصل الربيع غارقة في الصمت والتأمل ، وكأنها لا تنتظر شيئاً ، لكن العين النافذة المدققة ترى في صمتها انتظاراً أو بقية من ترقب ، وترى في هذا السكون حذراً مخادعاً ، إذ لا بد أن ينتهي فجأة وكأنه لم يكن[٤] .

ونلاحظ في حديثه عن التطور في موران ، أنه قفز قفزة واحدة ، فإذا بموران

---

١ - التيه ، ص ٦٩

٢ - التيه ، ص ٩٨

٣ - التيه ، ص ٩٩

٤ - الأخدود ، ص ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة ، وإذا بالمدينة انتقلت فجأة من مرحلة الاعتماد على الأعشاب إلى الاعتماد على الأدوية التي توجد في الصيدلية ، ويبقى على امتداد صفحات الرواية يتكلم عن العلاقات الاجتماعية عبر الشخصيات ، ونسي المكان .

ثم يعود في الجزء الثالث ليتكلم عن الحياة السياسية في موران ، بما يتخللها من صراعات بين الأمراء ، مثل الأمير مرخان بن هديب ، وقد اعتمد على روايات المؤرخين في توثيقه لأحداث المعركة ، إلى أن وصل الى حياة القصور ليبين لنا أبعادها السياسية ، فاستخدم النساء والخدم والعبيد ، ليكونوا رموزاً للأطراف المتصارعة ، ويبقى على امتداد صفحات الرواية ، يسرد الأحداث التاريخية التي مرّت بها موران[١] . ومن ثم انتقل في الجزء الرابع ليتكلم عن ليالي بادن بادن وما تخللهامن أحداث ، وبذلك استطعنا من خلال السرد أن نتعرف الى تاريخ منطقة كاملة بكل تفاصيلها وأحداثها .

مما تقدم نرى أن أساليب السرد عنده تنوعت . كما تنوع زمانها ومكانها ، فبدأ السارد بالتنقل بين أمكنتة الجديدة ، متأرجحاً بين ماضي حران ومستقبل موران وبالعكس . ولم يعتمد الكاتب في وصفه للمكان ، على السرد منفصلاً عن الحوار ، بل دمج بينه وبين المونولوج الداخلي للشخصية ، لعكس صورة المكان : «قال محمد عيد لنفسه وهو يتجول في الأسواق : « رائحتها لا تطاق ، تشبه رائحة الموتى» ، وبدأ يتذكر من جديد «لا تشبه أية مدينة أخرى ، ولا تشبه نفسها، والناس فيها اجتمعوا بالصدفة ، ولن يستمروا طويلاً ، تماماً مثل ركاب سيارات عبود السالك»[٢] . وفي حوار بين الحكيم وذاته ، استطعنا التعرف على علاقة الحكيم ببيته : «البيت فارغ وموحش ، لماذا تركتهم يذهبون ، يتنقل بين غرفة وأخرى ، يتطلع إلى الأثاث والجدران ، كل شيء يذكر بالذين رحلوا ، يحس أنهم بعيدون ، بعيدون جداً ، لماذا تأخر لماذا لم يسافر معهم ، هكذا سأل نفسه بنوع من المرارة»[٣].

---

١ - تقاسيم الليل والنهار ، ص ١١٨ .

٢ - الأخدود ، ص ١٨٤ .

٣ - الأخدود ، ص ٦٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك ، نرى أن لغة الكاتب : كانت أقرب إلى اللغة السردية ، فبدا وكأنه يرصد لتطور المكان في فترة معينة ، بجميع أحداثها التاريخية وتفاصيلها اليومية وليس معنى ذلك أن لغته كانت تفتقر إلى لمسات فنية ، بل استطاع بتنوع أساليبه، أن يتيح للقارىء مجالاً للتأمل في عالم الرواية ، وذلك بلجوئه إلى غير أسلوب في السرد ، يستطيع الكاتب بها أن يرسم صورة أخرى للمكان الذي صوره ، ومع أن الرواية جاءت على شكل مشهد سينمائي متقطع الأحداث ، إلاّ أن لغة الكاتب ساعدت القارىء على تشكيل العالم الكامل لهذه الرواية . دون إحداث تشتت وبعثرة لأفكاره . كما أن التنويع اللغوي عنده حدد الغاية المرجوه من وراء ذلك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : المكان ورؤية الكاتب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعد المكان الركيزة الأساسية التي طرح الكاتب من خلالها رؤيته للحياة التي كانت ، والتي قامت مجدداً في المدن النفطية .

ومنذ البداية ، نرى أن الصحراء ، كانت المدخل الأساسي الذي ارتكز عليه الكاتب للتعبير عن نقمته على ما حدث في هذه المنطقة من تغير أدى إلى دمار الإنسان العربي ، لعدم قدرته على مجاراة هذا التغير ، فكان اكتشاف النفط في هذه المنطقة ، سببا في تقسيم المجتمع العربي إلى أغنياء وفقراء، كما « حوّله إلى مجتمع استهلاكي ، يعتمد على الغير في تأمين جميع مستلزمات حياته ، من غذاء وكساء وتكنولوجيا ، وجعل العمل والإنتاج مقياسين ثانويين « كما أصبح هناك من يملكون ومن لا يملكون ، داخل كل دولة ، وعلى مستوى المنطقة ، والفرق بين الاثنين يتسع يوماً بعد آخر ، ... ، كما تزايدت التأثيرات السلبية للنفط ، خاصة في السنين الأخيرة ، حيث تولدت تشوهات عميقة في البنى الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والسياسية ، أدت إلى هيمنة العوامل والصيغ المختلفة وإلى غلبة النموذج الأقل تطوراً [١] »

وقد لجأ الكاتب إلى استخدام أسلوب خاص ، لتصوير تلك المدن بعد التغير، مما دلّ على أنه يتكلم عن مكان واقعي ، وهو على صلة بهذا المكان وهذا الحدث ، الذي حركه عن طريق شخوصه ، فرسم لوحة تفصيلية لتلك المناطق ، إذ وصف الحياة وصفاً دقيقا تخللها وصف تفصيلي لتصرفات أهل الوادي ، وكان في وصفه هذا ، وحديثه المفصل عن البيئة وأشخاصها ، يعبر عن رضاه واطمئنانه لذلك المكان، إلاّ أن هذه الطمأنينة ، بدأت تخف وتتزعزع عندما جاءت الحملة ، وبدأت بإحداث تغيير في الوادي ، وبذلك سيطرت على لوحاته الحركة التي توحي بالاضطراب في نفسية الكاتب ، وقد عبر عن موقفه من مجيء الحملة ، بمقطع سردي يبين من خلاله شعور أهل الوادي تجاه هذه الحملة :« إن هذه الأمور وعشرات غيرها ، لا يمكن أن تروى بكلمات ، لأن الكلمات تضعفها أو ربما تغيرها ،

---

(١) فصول ، رأي وشهادة حول القمع ، عبد الرحمن منيف ، ع٣ ، ج٣ ، مج١١ ، خريف ١٩٩٢م ، ص ١٩٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالخوف يزيد لحظة بعد أخرى ، والتوقع يسيطر على الناس ويشلهم ، والمفاجأة هي الشيء الوحيد الذي يتكرر بلا انتهاء [١] » .

وقد استخدم الكاتب غير طريقة للتعبير عن رفضه للحملة ، وللرحيل عن الوادي ، وما تبع ذلك من تغير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لتلك المنطقة، فجعل بطله منذ البداية يختار طريقاً طويلاً إلى وادي العيون ، بعد عودته من مناقشة الأمر مع الأمير ، إذ استغرقت العودة يومين وليلتين [٢] ، وهو بذلك أراد أن ينوّه إلى بداية طريق طويل وصعب سيسلكه أهل الوادي لمواجهة الأوضاع الجديدة بعد الرحيل .

أما المناطق الأخرى مثل الحدرة وروضة المشتى ، فقد وظفها الكاتب ليطرح من خلالها نظره في قضية الرحيل ، فقصد من وراء مرض وضحة وابنها فواز بعد مرورهم من روضة المشتى ، أن يبين المصاعب التي سيواجهها أهل الوادي بعد رحيلهم عن تلك المنطقة ، وقد استعاض فيما بعد الخيمة - التي تعني التنقل وعدم الثبات - بالبيت ليبين لأهل حران ، أن بيعهم لبيوتهم مقابل أقل الأثمان ، يعني بداية لتشردهم وضياعهم ، وأن اختيارهم لبيوت خاصة بهم في أقصى مكان من الغرب قريباً من التلال ، يعني أن حران منذ هذه اللحظة ، أصبحت ليس ملكاً لأهلها ، وأنهم انفصلوا عنها نهائياً وسيبقون فقط ينظرون إليها عبر منظور المشاهد وليس المشارك [٣] .

ويلجأ السارد إلى الحديث المفصّل عن الرحلة بعد ترك الوادي ، فقد دار حديثه عنها على امتداد أربعين صفحة، وقصد الكاتب من ذلك توضيح جغرافية المنطقة ، وتأكيد تاريخيتها وأصالتها ، وذلك لتثبيتها في ذهن القارئ لأن معالمها ستتغير فيما بعد ، فنراه يبدأ « كان هديب قد سبقهم إلى عجرة المحطة

---

(١) التيه ، ص ٧٢

(٢) التيه ، ص ٩٣

(٣) التيه ، ص ٢٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكوين العبارة التي توضح عدم رضاه عن الحياة الاجتماعية السائدة، ويحمّل المكان نفسه مسؤولية ما يحدث . فهذه الصورة التي مرّت بنا ، كانت بمنزلة لوحة عاكسة للحياة الاجتماعية لفئة معينة من المجتمع ، وقد تُظهر لنا سخط الكاتب من هذا المكان من خلال تكوينه للعبارة أثناء حديثه عن التفاوت الطبقي به .

كما وظف الكاتب هذه البركسات ، ليوضح موقفه الرافض للعمل في الشركة الأمريكية ، فيبين أنها كانت أول محاولة من هؤلاء الأمريكان لإخضاع تلك الفئة لسيطرتهم ، وعزلها عن بقية الشعب ، لذلك جاء موقع هذه البركسات بعيداً عن أهل البلد، كما أحيطت بالأسلاك الشائكة ، وأجبر العمال على الدخول من تلك البوابة بعد إبراز البطاقة الصفراء [١] .

وقد هدف الكاتب من خلال شرحه لظروف العمال ، وعلاقاتهم ببعضهم البعض، من ناحية ، وعلاقاتهم بعملاء الأمريكان من ناحية أخرى ، إلى توضيح الهدف الأمريكي من ذلك ، وهو بثّ الفرقة بين أبناء المجتمع النفطي من جهة ، وإلى إظهار خطر العمل في تلك الشركة من جهة أخرى ، مدللاً إلى ذلك بموت مزبان ، وموضحاً أن هذا هو المصير الحتمي لكل عامل يسكن في هذه البركسات ، أو يعمل في هذه الشركة ، وليس شرطاً أن يكون الموت الجسدي هو النهاية الحتمية لهؤلاء العمال - سواء الذين يعملون مع الشركة أو عندها - فوضْع ابن الراشد عندما تخلت عنه الشركة * عند دفع التعويض لأهل مزبان - لم يكن أحسن من وضع مزبان نفسه، الذي مات أثناء قيامه بالعمل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد قصد الكاتب إلى إظهار الذل والهوان اللذين سيلاقيه هؤلاء العمال ، نتيجة لقبولهم العمل مع الشركة الأجنبية ، وذلك بتوضيح الفروق الطبقية بين العمل العرب والأجانب[٢].

كما استخدم الكاتب جهاز الأمن والسلامة ، لتوضيح البعد السياسي للدول الأجنبية ، ومحاولتها السيطرة على المنطقة ، وذلك من خلال الرئيس الفعلي

---

(١) التيه ، ص ٢٧٣ .

(٢) نفسه ، ص ٢١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للجهاز ، كما أراد أن يدلل على تبعية الدول العربية لهذه الدول الأجنبية ، دون وعي وفهم ، وقد لمسنا موقف الكاتب هذا من خلال عرضه لتصرفات حماد ، بعد عودته من أمريكا ، موضحاً ذلك من خلال جملة سردية قالها الراوي « هل قال الأميركيون لحماد أن يقلب نهاره ليلاً ، وليله نهاراً ، أم توصل إلى هذه الفكرة بحدسه الملعون ورغبته الجامحة المجنونة [١] »

« ولكي يعبّر الكاتب عن مفهومه التاريخي بشكل تاريخي كاف ، فهو يستطيع أن يعالج الحقائق الفردية بأكبر قدر من الحرية يشاء ، لأن مجرد الإخلاص للحقائق الفردية في التأريخ بغير هذه الصلة عديم القيمة تماما » [٢] ، لذلك فإننا نرى أن السلوك الاجتماعية والإنسانية البسيطة التي مرّت معنا ربما تكون غير مهمة ظاهريا ، إلاّ أن هذه العلاقات الصغرى (من الخارج) أكثر ملاءمة من سلسلة أحداث التاريخ العالمي المهمة الكبرى» [٣]

وفي النهاية ، فإننا نلمس مما تقدم ، أننا أمام رواية تاريخية جدية ،عرض فيها الكاتب للوقائع والحوادث الصغيرة ، فتناولت الرواية « جوانب مختلفة بين الإنسان - الفرد والمحيط ، وبين الإنسان - الفرد والقوى الحاكمة أو المالكه ، من خلال تطور مجتمع في ظروف وشروط غير متكافئة» [٤] ، وكان تناوله لهذه الجوانب مقترناً بوعي سياسي، وإلمام جغرافي لهذه المنطقة مما ساعده على أن يخرج في النهاية برواية جديّة ، على الرغم من لجوئه إلى أسلوب الهزل حتى في عرضه لبعض الوقائع التاريخية .

وعن طريق هذه الرواية ، استطعنا أن نعي تاريخ منطقة معينة - وهي منطقة شبه الجزيرة العربية - وتاريخ شعب معين ، إذ أقام لنا الكاتب مجتمعاً

---

(١) الأخدود ، ٢٣٠

(٢) الرواية التاريخية ، جورج لوكاش ، ت : د. صالح جواد الكاظم ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، الجمهورية العراقية ، بيروت : دار الطليعة والنشر ، ١٩٧٨ م ص ٢٣٧ .

(٣) نفسه ، ص ٤٦

(٤) مجلة فصول ، رأي وشهادة حول القمع ، عبد الرحمن منيف ، ع٣ ، مج ١١ ، ص ١٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تسوده الصراعات الطبقية والمنافسة بين الأشخاص في سبيل تلبية المصالح الشخصية ، وقد نلمس رؤية الكاتب الشاملة في تبيانه لقوانين الصراع ، عن طريق إشارته إلى التمييز الطبقي لبيئة المجتمعات النفطية ، ابتداءاً من الأمراء والوافدين على المنطقة ، والذين يقرنون مصائر بلادهم التاريخية بمصائرهم الشخصية - وانتهاءاً بالبركسات والخيام . كما بين العلاقات العدائية التي قامت بين الطبقات البرجوازية وعلاقاتها مع الطبقات التحتية الفقيرة .

وقد استطاع الكاتب بذلك كله ، أن يحلل العلاقة التي تربط الإنسان بالمكان عبر زمانين متناقضين - زمن البداوة وزمن الحضارة- فيبين موقفه المعارض لمجيء الحملة إلى الوادي ، والذي كان العنصر الأساسي الذي عمل على تغيير المكان والناس ، وبالتالي كان السبب في تكوين حالة الصراع التي عاشها هؤلاء العرب، بعد تركهم للوادي ، ومحاولتهم مجاراة الحضارة ، مما أدى إلى تغيير معتقداتهم الفكرية والثقافية ، وبالتالي أدى إلى دمارهم ، وقد لخص الكاتب موقفه من هذا كله بمقطع سردي بسيط .« إنها مأساة من نوع خاص ، تشبه حالة فقدان الذاكرة ثم استعادتها في وقت متأخر ، فتظهر فوضى الأشياء وتداخلها ولعنتها أيضا ، ومع ذلك ، وإذا كانت حياة متعب الهذال تهم أحداً ، وإذا كان وادي العيون قد وجد في وقت من الأوقات ثم تلاشى تحت وطأة الزمن الآخر، فإن اللحظات الأخيرة هي وحدها الباقية ، وقد تكون وحدها التي وقعت فعلا [١] » .

فنلاحظ أن ما حدث في هذه الصحراء من وجهة نظر الكاتب ، ليس مجرد حدث وقع وانتهى ، بل هو مأساة حلّت بأهل الوادي ، وستبقى لعنتها ، مادامت آثارها موجودة .

---

(١) التبه ، ص ٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

يُعدّ عبد الرحمن منيف واحداً من أهم الروائيين العرب الذين ظهر في أعمالهم التلاحم بين الشكل الروائي المتفوق والمضمون الإنساني العميق ، ولا سيّما تحليل العلاقة بين الإنسان المقهور والقوى المستبدة الظالمة ، إذ نجد الحرية والتقدم في مقابل فكرة القمع والتخلف ، من أبرز الأفكار التي ساهمت في تشكيل أعماله الروائية .

وقد جاءت رواية « مدن الملح » نموذجاً للروايات السياسية التاريخية التي رصدت لمنطقة بأكملها قبل أكتشاف النفط فيها وحتى اتصالها بالعلم الخارجي.

ومنذ البداية ، اهتم منيف بالمكان ، فوظف الصحراء توظيفاً فنيا عميقاً باعتبارها من أهم عناصر المكان ، فبدت لوحة فنية تسيطر عليها الحركة بجميع أبعادها ، إذ كانت البنية التحتية التي ارتكزت عليها الرواية ، ومن خلالها بدأ الكاتب تحديد جغرافية المدن التي نشأت فيما بعد ، لذا ، تنوعت بيئات الرواية بما تحمله كل بيئة من خصوصية معينة ، وهذه الخصوصية - الطبيعية أو السياسية أو الاقتصادية - أضافت للمكان بعداً خاصاً فيه ، وهو البعد الإنساني .

كما كان المكان مهما لمعرفة البنية الروائية لمدن الملح ، إذ اهتم به اهتماماً كبيراً وقدّمه على بقية العناصر الأخرى ، فجاء المكان عنده متحركاً وليس ساكنا ، اكتسب ملامح اختلفت اختلافاً جذرياً عن ملامحه السابقة .

وقد تعدّى المكان بعده الجغرافي ، ليحمل أبعاداً سياسية واجتماعية ونفسية تبلورت من خلال العلاقة الجدلية التي حدّدها الكاتب للمكان مع بقية عناصر الرواية ، وبخاصة علاقة التأثر والتأثير المتبادل بين الإنسان والمكان ، فصاحب تحرك المكان تغير في ملامح أهله وأمزجتهم وطبائعهم ، ومن خلال الشخصيات مجتمعة ، تعرّفنا على طبيعة المجتمعات العربية ، ولا سيما النفطية منها ومدى ارتباطها بالمكان واعتمادها عليه ، فرأينا التحولات الظاهرية التي أصابت الإنسان في تطور

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علاقته بالمكان ، إذ بدأ يواكب حركة التغيرّ المدمّر من غير أن يدرك أبعادها أو يمهدّ لها في الأغلب ، وعلى هذا النحو رأينا كيف كان للمكان دور كبير في بناء الشخصية الروائية ، كما تفاعل المكان مع الزمان ليبلورا أبعادها ورسم تفاصيلها ، فنرى أن تذبذب المناخ وترجّح الطبيعة بين العطاء والجفاء ، أديا إلى تذبدب في تصرفات أهل الوادي وعلاقاتهم بالآخرين ، فامتازت بالترّجح بين البساطة والسخاء والشراسة والبخل .

ولاحظنا أن رواية « مدن الملح» كانت مبنية على أساس التمازج بين المكان والزمان ، فكان الحدث الروائي وسيلة لتأريخ الزمان في الرواية ، كما كان المكان وسيلة محتوية على تاريخية هذا الحدث ، وبذلك فقد اصطبغت الرواية بالصبغة التاريخية ، إذ استطاع الكاتب أن يؤرّخ لمرحلتين زمانيتين متناقضتين قُلبت خلالهما الموازين البيئية والاجتماعية لهذه المنطقة ، وربما تكون حركة الزمان في المكان قدمكنتنا من قراءة مجتمع ه ذه المنطقة بكل تفاصيله وهمومه ، فتعّرفنا على حياة الناس وأحلامهم ، كما تتبعنا الخطوات التي أدّت إلى دمارهم .

أما الرمز ، فظهر واضحاً في الرواية ، إذ اضطر الكاتبِ إلى تغييب المكان الواقعي وأحلّ محله الرمز المكاني ، إلاّ أنه دلّل عليه ببعض الإشارات التي ساعدت في تحديده ، سواء أكانت هذه الإشارات في اللهجة أو الشخصية الرمز أو الزمان الرمز ، وقد كانت بعض الأحداث التاريخية الرمزية وسيلة لتحديد المكان .

وإلى جانب ذلك ، نرى أن لغة الكاتب ساعدته في بناء عالم يحمل الزمان في جميع مراحله وإشعاعاته ، إذ تنوعت صياغته الكتابية ، فظهر أسلوب السرد إلى جانب الحوار ، كما تداخل أسلوب الوصف مع السرّد ، ليكوّنا معاً المكان بكل أبعاده ، وقد كان لكل أسلوب جمالية محدّدة ساهمت في إضفاء بعد جديد للمكان إضافة إلى أنه في صياغته بيّن دور المكان في صياغة ألفة الإنسان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- المصادر : -

١- عبد الرحمن منيف

(١) مدن الملح - أ - التيه - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ج١، ط٣، ١٩٨٨م .

ب - الأخدود - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ج٢، ط٣ ، ١٩٨٨ م

جـ - تقاسيم الليل والنهار - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ج٣ ، ط ١، ١٩٨٩ م

د - المنبت - الموسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ج٤ ، ط١ ، ١٩٨٩م

هـ - بادية الظلمات - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ج٥ ، ط١، ١٩٨٩م

ب- المراجع

١- إبراهيم خليفة ، علم الاجتماع والمدينة ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ م .

٢- أحمد جاسم الحميدي ، البطل الملحمي في روايات منيف ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ،ط١

٣- أحمد الزعبي، في الإيقاع الروائي - نحو منهج جديد في دراسة البنية الروائية - دار الأمل ، ١٩٨٩م .

٤- آلان روب جرييه ، نحو رواية جديدة ، ت : مصطفى إبراهيم مصطفى ، تقديم ، لويس عوض ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- آلان روب جريية ، نحو رواية جديدة ، ت : مصطفى إبراهيم مصطفى ، تقديم ، لويس عوض ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .

٥- جاستون باشلار ، جماليات المكان ، ت : غالب هلسا ، دار الجاحظ للنشر وزارة الثقافية والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ م .

٦- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ج٢ ، ١٩٧٨ م .

٧-جورج لوكاش ، الرواية التاريخية ت : صالح جواد الكاظم ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨.م

٨- حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت الدار البيضاء ، ط١ ١٩٩٠ م

٩- حسين رشوان ،المدينة - دراسة في علم الاجتماع الحضري - المكتب الجامعي الحديث الاسكندرية ، ١٩٨٢ م

١٠- رولان بورتوف ، وريال أوتيليه ، عالم الرواية ، ت : نهاد التكرلي ، مراجعة : فؤاد التكرلي ،ود. محسن الموسوي ، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية ،العراق ، بغداد ط ١ .

١١- سامي سويدان ، أبحاث في النص الروائي ،مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ،ط١ ، ١٩٨٦ م.

١٢- سمير الحاج شاهين ، لحظة الأبدية- دراسة الزمان في أدب القرن العشرين - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١، ١٩٨٠ م

١٣- سيزا قاسم ، بناء الرواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٥- عبد الرحمن بدوي

(١) موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١، ج٢ ، ١٩٨٤ م

(٢) مدخل جديد إلى الفلسفة ، وكالة المطبوعات : الكويت ، ١٩٧٤.

(٣) أما نويل كنت ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط١ ، ١٩٧٧ م .

١٦-عبد الرحمن منيف ، الكاتب والمنفى ،دار الفكر الجديد : بيروت : لبنان، ط١ ١٩٩٢ م

١٧- عبد الفتاح عثمان ، بناء الرواية - دراسة في الرواية المصرية - مكتبة الشباب ، مصر ، ١٩٨٢ م

١٨- عبد المنعم شوقي ، علم الاجتماع الحضري، المطبعة العالمية، ١٩٦١ م

١٩- عصام محمد الشطي ، الجمالية والواقعية في نقدها الحديث ، الموسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٧م.

٢٠- علي عبد المعطي ، قضايا الفلسفة العامة ومباحثها ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ط٢ ، ١٩٨٤ م.

٢١- قباري محمد إسماعيل ، علم الاجتماع والفلسفة ، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية ط٢ ، ج٢ .

٢٢- محمد برادة وآخرون ، الرواية العربية واقع وآفاق ،دار بن رشد للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١ .

٢٣- محمد غنيم ، المدينة - دراسة في الأنثروبولوجيا الحضرية - دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٤- محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٧ م

٢٥- محمد حسن عبد الله، الريف في الرواية العربية ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨٩ م

٢٦- مورس شرودر وآخرون ، نظرية الرواية -علاقة التعبير بالواقع ، ت: محسن الموسوي ، منشورات مكتبة التحرير ، بغداد ، ١٩٨٦ م

٢٧- مراد وهبة ، المعجم الفلسفي ، دار الثقافة الجديدة : ط٣ ، ١٩٧٩ م

٨- هانز ميرهوف ، الزمن في الأدب ، ت : أسعد رزوق ، مراجعة : العوض الوكيل ، مؤسسة سجل العرب ، أكتوبر ، ١٩٧٢ م

٢٩- هنري بيير ، في الأدب الرمزي ، ت : هنري زغيب ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١ م.

٣٠- نبيلة إبراهيم ، نقد الرواية ،النادي الأدبي ، الرياض ، ١٩٨٠ م.

٣١- ياسين النصير :

(١) الرواية والمكان - الموسوعة الصغيرة - ١٩٥٠ - منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، دار الحرية للطباعة، بغداد ، ١٩٨٦ م .

(٢)الرواية والمكان - الموسوعة الصغيرة - ٥٧ - ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٦ م

(٣) إشكالية المكان في النص الأدبي ، دار الشؤون الثقافية اعامة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٦ م

٣٢- يوري لوتمان وآخرون ، جماليات المكان ، عيون المقالات ، باندونغ : الدار البيضاء ، دار قرطبة ، ط٢ ،١٩٨٨م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ- الرسائل الجامعية

١- مها حسن يوسف، المكان في الرواية الفلسطينية ١٩٤٨ - ١٩٨٨ م، ماجستير ١٩٩١ م ، جامعة اليرموك .

٢- نورة محمد آل سعد ، التجريبية في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف، ماجستير ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م - الجامعة الأردنية .

د- الدوريات

١- أبحاث اليرموك ، سلسلة الآداب واللغويات ، منشورات جامعة اليرموك، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا ، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف ، ع٢ ، مج ، ١٤٢١ هـ ، ١٩٩١ ، ص ٥

٢- الآداب : غالب هلسا ، المكان في الرواية العربية ، ع٣٠٢، ١٩٨٠ ص٧٢

٣- أفكار ، يوسف ضمرة ، في مدن الملح - قراءات نقدية ، ع ٧٥ ، ١٩٨٥ ، ص ١٤٧

٤- أقلام ، اعتدال عثمان ، جماليات المكان ، ع٢ ، ١٩٨٦ ، ص ٧٦ .

٥- الأقلام ،

(١) د.إبراهيم السعافين، لغة السفينة، ع٢، شباط ١٩٧٩، ص ٧٦-٧٧

(٢) صبري حافظ ، الحساسية الجديدة ، واستخدامات المكان ، ع ١١-١٢ ١٩٨٦، ص ٧٠

(٣) حوار مع ياسين النصير ، ع٤ ، سنة ٢٠ ، ١٩٨٥ ، ص٧٠

٦- فصول

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١) صبري حافظ ، الحداثة والتجسيد المكاني ، ع ٤ ، مج ٢، ١٩٨٤م ص ٧٢

(٢) عبد الرحمن منيف ، رأي وشهادة حول القمع ، ع٣، مج ٣، مج ١١ خريف ١٩٩٢ ، ص ١٨٢

(٣) اعتدال عثمان ، البطل المعضل بين الاغتراب والانتماء ، ع٢ ، مج ٨ ١٩٨٢ م ، ص ٩١

٧- المعرفة السورية ، عبد الإله عبد الرحيل ، قراءة في مدن الملح لعبد الرحمن منيف ، ع ٢٧٥، كانون ثاني ، يناير ، ١٩٨٥ ، ص ١٦١

٨- الناقد ، شاكر ، الأنباري ، مدن الملح رواية متعددة المحاور ، ع٤٢ ، كانون الثاني ، يناير ، ١٩٩١م ،ص ٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

The Place In Mudun Al-milh Novel

by Abd ar- Rahman Munif

This thesis attempts at studying the subject of "place" in the extensive novel Mudun al - Milh { Cities of Salt} , by Abd ar-Rahman Munif . This novelist is considered one of the most prominant Arab writers who contributed to the development of Arabic novel - form.

" place : is Munif's best matter of interest and the driving force behind his originality . The five sub- titles of the novel show how close this extensive literary work is entwined with " place" .

This concept is so interwined with the other elements of the novel that it is not strange to characterize "place" as the hero of this novel.

This thesis consists of an introduction , two main chapters and a conclusion . In the introduction , the writer clarifies the concept of " place" in philosophy , sociology and literature .

Chapter one of the thesis deals with the desert , sea, and other elements as manifestations of " place " We can conclude here that " place" for the novelist . was an active rather than an inactive element of the novel . " Place" here surpassed the concept of geography and became a political ,

٤٣٢٢٥)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

social and psyclological fact . This was apparent in the controvercial relations which the novelist created between " place" and the rest of the novel 's structural elements.

Chapter two of this thesis was devoted for the subject of novelistic structure through the elements of literature and its connection with " place" . It includes several aspects of the writer's research , namely , the relation of " place" with time and how one affects the other , real " place" and symbolic characters, and the novelist's view of " place' and language .

we can say , in conclusion , that novelist Munif succeeded in fixing " place " as a basic element in this monumental work.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit